إشراقات جديدة

مدن وضواحى

قصص

أحمد محمد حميدة

دراسة :

محمد محمود عبد الرازق



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٤

إشراقات جديدة

تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة

د. سمير سرحان

رئيس التحرير

عبد العال الحمامصى

مدير التحرير

حزين عمر

سكرتير التحرير

أحمد توفيق

المخرج الفنى

صبرى عبد الواحد

تصميم الغلاف

الفنان محمود الهندى

إهـــداء

إلى

قطارات الوصل

فجر المتاهة

غادرت العربة الأجرة أحمل حقيبتى، ورأسى مغبش، وثقيل، يناضل سطوات النوم المهاجم.

لا يزال الليل يتوسد الميدان، ينطرح فوق الصمت المتكدس بالزوايا، يستبيح الأعين الساهرة.. حوانيت الفاكهة ودكاكين الأكل.. المقاهى مفغورة الأبواب ومقاعدها الفارغة المرصوصة ترقب الأسفلت المندى وخطو بعض المارة، والفجر المتوارى وراء البيوت العالية.. عيون تراخت أبدانها فوق الكراسى وأسفل المصابيح فوق أعمدة توقفت كحرس يقظان للميدان الفسيح وعربات الأجرة.. بائتة كانت بسائقيها فى الممنوع وعلى قضبان الترام.

صمت راكب يزيد الرأس ثقلاً، ويشعر المرء بالتفرد.

وحدى.. أجرجر قدمى. منتشيًا بالرحيل عبر تمسك الليل بالبقاء وقدوم الفجر.. صالة التذاكر تحتوينى.

عيال الليل والتسول، هنا، إلى جوار الحوائط.. نائمون.. ناشرون الأذرع والسيقان.. لو كان الفصل شتاء لانكمشوا.. ونساء الزمن المكدود تناثرن بأركان أخرى منكمشات بجانب قفف وأقفاص، يقاومن أثقال الرءوس، رجال القمصان والعمائم والجلاليب، تربعوا أسفل شباك التذاكر الموصدة، تعلوه عبارة درجة ثالثة لجميع الجهات.. أعرف جهتى. وحدى. ولا أحد غيرى يعرف.

أنا الثالث بالطابور.. يسندنى حاجز حديدى، أرتاح إليه، وأتثاءب.. أغمض عينى. ولا أرى غير ظلام رائق من شوائب العالم.. قليل وينفرج الشباك. ويظهر الموظف وآخذ تذكرتى، وأتابع خطوى إلى الرصيف وأركب، أغفو حتى يغادر القطار المدينة.

(- ممكن تقطع لى معك تذكرة؟)

اختلجت أجفانى.. خارج الطابور هو. وأنا المزنوق بين طابور تطاول.. الوحيد الذى انتقانى. اختارنى.. تجاهلت تهدج صوته شبه المتضرع. رفعت جفنى.. قبالتى يده المعروقة. تختلج. تحمل الثمن. نقود ورقية ومعدنية.. تمردت يدى بصمتى المتعض.. أعاد صوت المتهدج المتوسل..

(- ممكن تذكرة معك، لو تكرمت؟)

وغبش الفجر يحشو تلافيفى.. يراوغنى.. يلهب عينى.. امتدت يدى بسأم.

(- إلى أين؟)

أودع النقود فى راحتى قبل أن ينطق، وكان يتلفت حوله بلهف. موليًا لى جانبه الأيسر - والغيظ يعترينى - فالأيمن.. سلبنى ارتخاء المشاعر. ضاق نفورى. تجاهلته..

قال..

(- أذاهب أنت إلى القاهرة؟)

تهكم غيظى، وهو يبتعد..

(-أعتقد.)

(- أنا أيضًا ذاهب إلى القاهرة)

بلحظة دفعة مفاجئة بظهرى اختفى. وباختفائه تيقظت مشاعرى، فرفعت ذراعى بثمن التذاكر، لأبرهن له - لو كان يرانى - بأننى هنا موجود.

لمت نفسى لرفعى الذراع ولشعورى باليقظة له..

رجلان أمامى وأواجه الشباك بالخلف أكثر من مائة رجل يشملهم ضجر السهر والوقوف، وجهامة موظف بدين وراء الزجاج. مستاء. كسول. التهب رأسى لشعور الضآلة المداهم.. فكرت فى إعادة الثمن للرجل الذى ومض بذهنى ليحتوينى.. استخدمنى. كيف؟

أدركتنى أعين رجال الطابور.. توقعت صوتًا غاضبًا يعترضنى.. لكن.. يتكاثر الزحام عند كل الشبابيك.. تنبهت. لم أر للرجل وجهًا. ملامح.. إن كان بشارب أو بدون، أصلع الرأس أو بشعر.. لعلنى أبحث عن وجهه!

لابد أنه يرانى الآن، وقد سجلنى برأسه.. وربما يعتقد أننى سأختفى.. أو تراه واقفًا بالجوار يرصدنى فى لحظة تلفتى حول نفسى باحثًا عن مكانه.

حثنى الذى بالوراء لأتقدم من الشباك.. كسول الموظف ومنبعج الأجفان.. كل الشكوك المراوغة سوف تزول عنده.. ويأخذ تذكرته وينفض الأمر.. وأتعرف على شكله الذى يلح علىَّ، ونفترق، لألوذ بنفسى..

نبهنى صوت الموظف المقتضب.

(- تأخذ تذكرة)

كان يقول وقلمه ينبش على دفتر تذاكره.

(- اثين)

تأهب صعود الرفض تأخر بداخلى.. و.. قطع التذكرة ودفعها إلىّ.

ضغطنى قيد مباغت، عرقل لسانى، أثار أحشائى.. التف الرجل حول عنقى.. اثنان بتذكرة واحدة! بورقة فى حجم الكف، وبعربة واحدة، وربما فوق كرسى واحد؟؟

تستهوينى مناجاة نفسى بين صخب البشر الغرباء لكن.. انخلعت من الطابور المضغوط.. واقفًا بوسط الصالة بين تعارض المهرولين عبر الأبواب. التف حولى، لعله يرانى ويجىء.. تبصرنى أعين مندهشة، فذراعى المرفوعة بالتذكرة جعلتهم يلتفتون بفضول حارق.

أشفقت على مهانتى وأنزلت ذراعى. مرهقًا بصحوى الإجبارى.. انتظرت أن يأتى.. يسألنى.. تحركت نحو فناء الأرصفة. وتطلعت خلفى لعله يتبعنى بصباح أبيه الأسود.

أعادنى البغض إلى الصالة.

لمحت رجلاً متواريًا بجوار بروز حائط.. يشير لى بيده اليسرى، ويده اليمنى فوق جيب قميص خارج عن بنطلون مهرول.. مشغوف الحدقتين المتحركتين بذعر، تجوبان رءوس كل الظاهرين تباعًا عبر حدود الأبواب، بتوجس مرتاب فاق هاجس الشك لدى، وهو يشير علىّ بالانتظار والتأنى.. مشاعر الريبة تهيج روحى.. أشرت له بالمجىء وأنا أشرئب، فقد فصلت بيننا حركة الربكة والهلع.

أشار عليّ بالصبر والسكوت - وكنت ساكتًا.. وكان يمسح رءوس المقبلين بنظرة المرجف.. لوحت له بذراع البغض. فأشار إليّ بتذمر أن أصمت.. ونظرات الخافت الرأس الخائف تدفع جسده من ظل بروز الحائط.. حين هرول نحوى وليته ظهرى.. عندما جاورنى المسير قال بنبرة تضرع.

(- أرجوك. امش وأنت ساكت)

تجاوزنى بخطوتين، ملتمسًا إرضائى بوضع يده على صدره حيث جيب قميصه المتهدل.

(-لا تؤاخذنى.. هات تذكرتى)

بطرف جيبه تبرز ورقة بيضاء، استرعت نظرى، ورقة أولاها اهتمامًا ظاهرًا.

تهكمت بامتعاضى.

(-أنا وأنت تذكرة واحدة)

توجه إلى الفناء المزحوم بالبشر. قال:

(- هذا أفضل.. نعم، أفضل حتى لا يعرف أحد بخطوتى.. وانتقالى..) بين ارتياب المندهش، تلفت حوله بحذر.. وهو يتابع حديثه..

(- وهذا أفضل لنا، نعم. حتى تغطينى). وأبتعد نحو ظلال كشك الجرائد الموصد مخلفًا برأسى قوله الغامض «تغطينى».. ارتعدت، وهرعت مأخوذًا بحنقى ألاحقه.

(- ها..!! أغطيك.. تقصد أتستر عليك؟)

أشاح بيده كأنه يصرفنى.

(- ليس هكذا بالضبط.. أقصد نكون صحبة).. تأججت برأسى اليقظة.. تفور.. تفقدنى توازنى، تجرفنى مشاعر الارتياب فأبتعد موليًا له ظهرى.. ويقول (- لا تقلق هكذا.. خلى التذاكر معك).. واجهته وأبدان البشر تفصلنا.. أقول: (ولماذا لا تخلها معك أنت.. وتخلصنى؟)

(- أنا مطمئن معك.. أنت رجل طيب).. وانطوى بظلال الكشك مرسلاً عينيه نحو الأبواب، ملامسًا الورقة بيده.. شغلتنى أمعائى المنقبضة، موقنًا من إمساك سيعترينى ويصدعنى ويقرف رحلتى فقررت الفرار.. رميت بخوفه وحذره عرض أكتاف البشر، رافعًا صوتى، معالجًا بنفسى تيبس مصارينى بأريحية قرار الهرب.

(- أسمع.. أنا ذاهب لدورة المياه.. ها)

(- لماذا؟)

(- لماذا!؟.. تعبان..)

(- طيب.. طيب، لا تغضب.. اذهب..)

- هكذا بكل سهولة. ألا تتوقع هروبى؟

وصوته يعلو رويدًا، ليجلو عن نفسه بعض القلق.

(- إلى أين ستهرب والتذكرة معك.. سوف تأتى). ابتعد.. أحدث نفسى. «ولماذا لا أهرب»؟

وهو يلاحق أذنى بصوت أكثر ارتفاعًا ليصلنى عبر صخب البشر.

(- الدورة بالجانب الآخر من «الحوش»).

تصدمنى هرولة الناس وأنا أدير رأسى للوراء وأشرئب لأراه.. يراقبنى وهو يدنو من السور الحديدى الفاصل بين الأرصفة والحوش.. يدى ترتفع فوق

مستوى الرءوس بالتذكرة ليرانى.. توارينى الدورة.. أخرج التذكرة، أتفرس فيها.. تراودنى فكرة التمزق والإبقاء.. أودعتها جيب قميصى. وقعدت أطرد مخلفاتى. مفكرًا بإلغاء السفر، وقضاء بقية النهار فى الشوارع ليعلم العالمون بسفرى بأننى بالفعل مسافر. فلأعط له التذكرة وانتهى.. ربما يكون قاتلاً، أو سارقًا، أو مراقبًا من جهة مباحثية عليا لذلك يولى الورقة اهتمامًا بالغًا..

أهى أحد المنشورات؟.. ارتعدت.. داهمتنى دقة على الباب، توجست.. هو الطارق.. هو..؟

نهضت بصمتى المترقب.. تكرر الدق.. سحبت الباب برفق.. طالعنى وجه عامل الدورة بكوزه الصدئ وقطعة قماش المسح، قال:

(- تأخرت بالداخل يافندى. أنسيت نفسك؟)

كتمت ارتعادى بحنقى المتوغل برأس انصرف للحظة عن موعد قيام القطار.. إنغمست بين الزحام. والفجر ينشر لونه الرمادى على الكون..

الرجل ليس موجودًا..!

هرعت إلى كشك الجرائد الذى فتح بابه، هل تسلل وآثر الفرار؟

هل قبض عليه؟

تأخذنى الوجوه الوافدة.. نزعته من دماغى وتوجهت صوب الرصيف.. لكن.. باغتنى ومر بجوارى حين تجاوزنى. قال وهو يتقدم.

(- القطار قادم من هناك، هيا نركب)، كان القطار قد استقر بجانب الرصيف سبقنى، وركض، طفح الحنق برأسى. قلت.

- أنت هارب من أحد..؟

قال وهو يتوارى بخواء القطار..

(- هذا ليس من شأنك يا صديقى).. تحليت بالسكوت.. صعدت إلى السباب، يقيدنى قرار الهرب الذى قررته ولم أنفذه.. فلأمض الآن، أنعتق مع أول بوادر الفجر.. أطل برأسه من إحدى النوافذ.. يقول..

(. ألن تصعد يارجل. هل غيرت رأيك؟)

بك أو بدونك سأرحل. نعم. هيا، اصعد. ربع ساعة ويغادر القطار البلد.. قفص وأقفاص وركاب لاهثون يتوافدون، يتصايحون.. أطفال الدنيا السائبون يتسلقون بدن القطار المجهد مع العسكر الكاكيين، يعتلون ظهره العجوز.. ومضى برأسى خاطر أزعجنى وعبر.. خاطر ضغط روحى أثقل خطوى لحظة عبوره.. خاطر دفعنى إلى ممر القطار.. جالسًا إلى جوار نافذة باطمئنان مراوغ، يلوح فوق وجهه المصمت المتوارى وراء ورقته المنشورة يعيد قراءتها.. حين لمحنى أتقدم أجفل، وطوى الورقة، ونظر إلىّ بحنو الأسيان ليقول بحلق تقلص بغصة.

(- كان لابد أن تصعد).. وأنا أقعد على الكرسى المقابل، شاعرًا بتسرب غصة صوته الواهن، وقد قرب الورقة من جيبه بتردد. ثم أنزل اليد ووضعها تحت فخذه.. يحتوينى الصمت، رأسى الثقيل يغزوه صداع، وهو.. يقول:

(. أراك حائرًا بين الصعود والهبوط. لماذا؟ لماذا جئت إذن ودفعت ثمن التذكرة) مشغول ذهنى بتلك الورقة المخبوءة. أمضطر أنا لتحمل عواقب المجهول؟ صارت عيناه بوابتى دخولاً وخروجًا، يمر خلالها الوافدون، ولا يستقر بالدماغ أحد بعد..

مزنوقة حقيبتى بين الجدار وبينى.. لمحت القلق واضحًا فى العينين، والشفتان تختلجان.. قلت بصوت خافت.

(- يظهر أنك مضطرب)

فانطلق يقول على الفور:

(- جدًا.. جدًا، وخائف)

(- هارب ومطارد).

سحب الورقة من تحت فخذه، أودعها جيبه.

(- قتلت..؟)

امتعض بأسى..

(- هل شكلى شكل قاتل؟!)

نحيف بدنه.. ممصوص الوجه. قال:

(- قل: مقتل).

(- مقتول ومطارد..؟)

(- مقتول ومطارد.)

(- من الذى يطاردك..؟)

(- كل الناس تطاردنى، أمى العجوز، إخوتى. أطفالى وزوجتى. كلهم يريدون أكلى)

(- أطفالك وزوجتك؟)

(- تصور؟ يعتقدون أننى أمتلك نقودًا أكثر مما أقبض وأبخل عليهم. دائمًا يطالبوننى.. لأننى أكره السلف. بالمرتب الشهرى أكيف نفسى.. أضيع بيدها المرتب كله.. وأقضى بقية الشهر وحدى مفلسًا.. تصور.. لا.. لم أعد أحتمل..

فكرت فى نقلى لبلد آخر. لابد.. لبلد آخر). ارتكن رأسى على الجدار، مراوغًا صوته المتواصل بغضب.

(- بالليل تشاجرت معهم ومشيت. هبدت الباب خلفى ومشيت.. بعد نصف الليل مشيت). والغصة تسد حلقى، وتشده لرغبة البكاء.

(- لكن هى.. هى. فتحت الباب، وهرعت ورائى فى الشارع.. تصور فى الشارع..؟ هى تجرى وتقول، خذ هدومًا معك.. وأنا أجرى، خذ طعامًا معك.. وعيالى يجرون خلفها.. لكنى هربت.. هربت..)

أغمض عينى لأغفو.. يدخل تلافيفى.. يناوشنى. بهدوء المتحسر.

يقول:

(- لا أعرف حتى الآن، إن كانوا عادوا إلى البيت، أم مازالوا يجرون فى الشوارع).. القطار يتحرك، يهزنى بقوة. وصوته المتأسى يصلنى بوهن:

(- يجب أن أقدم نفسى لرئاسة الهيئة بالقاهرة، لابد من فعل شىء يريحنى).. أتقاوم.. مرخيًا بدنى المشحون بالتوتر.

(- على الواحد منا أن يجد نفسه، وأنا سأجد نفسى فى أبعد فرع، ولو فى أقاصى الصعيد الجوانى. ولن أفكر فى العودة). كف صوته عن العبث برأسى.. تحسست حقيبتى.. صحوت عندما سكت، لمحت جلد وجهه المشفوط يتقلص بإصرار وشرود فأغمضت عينى ثانية، وقد أجهدنى صوته.

(- ألا تكفى عشرة أعوام زواج؟ لم أشعرهم يومًا بأننى لا أملك غير راتبى الشهرى. هل يكفيك أنت؟)

رأسى على صدرى، فتحت عينى موشكًا على الانفجار.. لمحت أذرعًا بأصابع وسيقان رفيعة وقذرة لأطفال يتمطون أسفل الكرسى المقابل حيث

يجلس الرجل.. أطفال أدركهم الفجر الطالع والريح المعفر بحركة القطار الزاحف، بائتو الليل الفائت بالقطار البائت بمخزنه الوحشى القريب، يتمطون.. لم أرفع رأسى عن صدرى.. غشى الرجل صمت ثقيل ومباغت هدل تقلص جلد وجهه مختلج الشفاه. مدليًا رأسه ناظرًا إلى أسفل مقعدى. تيقنت أن هناك عيالاً آخرين، عاند إصراره الذى فتر بقوله.

(- الحل هو السفر.. نعم السفر)

كانت الغصة تحشو فمه.. أغمضت عينى لحظة.. حين فتحت رأيته ساندًا رأسه فوق كفه، متطرف الحدقتين إلى أسفل غائبًا فى أعضاء العيال المتناثرة، وصوته الآتى من عمق بئر يقول..

(- لو لم تجر المرأة خلفى، والعيال، ربما كنت غيرت رأيى ورجعت).. فأغمضت عينى وهو يريح على الصدر ذراعيه، ملامسًا بأنامل مرتجفة طرف الورقة.. ملاذى الآن اللجوء لعربة أخرى. لبشر آخرين.. يحدثنى، ويدرك تجاهلى له.

(- نقلى لبعيد أفضل..)

أبتلع غصته المملوءة بالدموع.

(- ماذا يحدث لو ابتعدت؟ لا شىء.)

فأرقنى الوهن الذى ينتابنى ويخدر بدنى أثناء السفر فأغفو إغفاءات أرانى فيها هائمًا فوق فراشى أصارع النعاس لأصحو فى مثل هذا الوقت من الصباح.

أتململ. تقهرنى أفكار الصبح المعتادة.. يلفظنى فراشى.. يجرجر أقدامى الحمام.. يغسلنى الماء، تتناهى لسمعى أصوات النوم السائد فوق الزوجة

والأبناء.. تتهدل فوق أكفانى اليومية.. يسحبنى حذائى لدرج يدحرجنى لباب يزج بى لشارع محفور بالرأس، منذ عهد الأب الراحل.. تحتوينى الشمس.. أو الريح أو المطر.. تغتال الشمس آخر ما تبقى لدى من نعاس.. ركاب آخر الوقت يتوافدون، يلهثون.. يتداخلون بصخب الصبح الطالع بشمس متوارية وراء جدران المحطة تنذر بيوم قائظ.. بما يتفوه كلانا حين يجىء المحصل؟

أهو معى.. أم أنا الذى معه؟

فتحت عينى.. منشورة الورقة بين يديه، تخفى نصف وجهه المصمت المعاند - مقطب الحاجبين، غائب النظر إلى أسفل، يرقب آخر العيال المنسلين ليتوهوا بين الزحام.

والقطار يهتز.. يشق الضباب ويرجنى.. يميل رأسى على الجدار.

أغفو.. وينزلق.. أرفعه.. أبصر الرجل مغلولاً بالصمت، طاويًا الورقة بين أصابع يده المرتخية فوق ساقه.

- ما رأيك؟

كمن يحدث نفسه، سأل.. وعيناى تزوغان بشكله الحائر داخل دماغى المرتبك.. فى مثل هذا الوقت من الصباح يبتلعنى باب العمل، يمتصنى.. يعتصرنى النهار.. أتوق إلى التحرر، الانعتاق.. فجأة وثبت.. تأبطت حقيبتى. فزع.. قال:

(- إلى أين؟)

أندس بين الأبدان..

(- مشوار وراجع)

(- أتتركنى، ومعك التذكرة؟)

يوارينى الزحام.

(- تريدها معك أنت؟)

صاح بصوت متقطع النبرات..

(- لا.. لا، معك أنت أفضل.. ربما.. أنعس).. اخترق بشر الممر..

أدركت أن العربة التالية خاصة بالدرجة الثانية، والمحصل هناك - محشور - يزاول شغله.

كان القطار يزحف ببطء، قريبًا من محطة كفر الدوار، ويوشك على التوقف.

هى أول بلدة بعد المدينة، فلتهبط، وتركض.. لكن التذكرة معى، وعيب ترك الرجل وحده.. أتملص من بين أبدان المكابدة.. كان مقعدى لا يزال فارغًا.. والرجل ليس موجودًا.. على مقعده رجل آخر، يحتضن طفلة، وطفل آخر فوق فخذه قاعدًا.. تزايد غيظى. مؤكد ذهب ليبحث عنى درت بعينى خلال تكدس الأدمغة.. أشرئب.. أتطاول وقد توقف القطار.. توافد ركاب آخرون بأحمالهم.. انحشروا بالممر المزحوم.

جين ضاق بى البحث. لعنته بسرى، ومررت لأجلس متوقعًا مجيئه.

وجدت مزق أوراق صغيرة. ومتناثرة بركن الكرسى، وعلى أفريز النافذة.. فتافيت قطعت بعناية. وطيرت. لكن لم تطر كلها.. بعضها بوسط مقعدى.. جمعتها بهدوء.. وجلست أنظر، محاولاً تجميع جملة واحدة.. كلمات متفرقة.. فقط.. تكرم.. مقدمة.. رجاء.. نق.. تعب.. ع.. و.. صعيد.. نقل.. ألقيت الورق.

وكنت أدور بعين.. أدور.

الأهرام ١٩٩٩/٩

صمت الغفوة

تمايل القطار كسكير عربيد يترنح. منبعج الجوف. محشور بأحشائه بشر مرهقون. يترنحون بترنحه الأهوج.. يغشاهم صمت مغزول بالهم والألم.. متساقطون كانوا فوق الكراسى. مبلمون.. و.. مشبوحون بالأذرع أسفل الأعمدة الحديدية.. يتساندون.. يستحلبون عصارة النوم الذى لم يكتمل يومًا.

نوم يقاوم بالصحو القسرى، لكنه يتسرب إلى أجسادهم ليأكل الأعصاب ورغبات التفوه بالكلام.. يغتال الضحك فى الصدور.. نوم مختبئ فى خبايا الرؤوس، يخمد التلافيق المكدودة.. طافح فوق السحنة، مطل بالإصفرار والوجوم. ينخر فى الأبدان لتبدو كأشجار جوفاء تصفر فيها الريح.. يوقون إلى إغماض الأعين. إسناد الأدمغة الثقيلة على الجدران.. المكن.. المكاتب.. أو الأرصفة.. مشجوب نهارهم بالحدقات.. يناضلون به النعاس.. ليعودوا ليلاً بما تجود به أيدى الورش. وكالة الخضر.. المصالح والأسواق..

كل يمضغ تثاؤبه، يخنق أعصابه ليرجع بفتات أعصاب ممصوصة تستحلبها الزوجة والعيال، أو السهر فى معالجة التوتر والأرق..

هنا يغتنمون فرصة ترنح القطار السكير ليسرقوا من الوقت غفوة..

لكن من بين الدمدمة والغمغمة والهمهمة والشخير. انطلق الصوت..

(هو النهاردة كام فى الشهر العربى..؟)

فى البدء لم يدركوه.. لم يعوه تمامًا ولكن انطلق صوت عجوز مرهق.. خرج من النعاس وعاد إلى النعاس.. جلى النبرة.. من فوق جاء أو من أسفل، من وسط التكدس..

(هو النهاردة كام فى الشهر العربى..؟)

على الرغم من أنه قيل بتلقائية رأس خامل لرجل تنبه من غفوة.. ثم غفا ثانية. كمن سأل نفسه وأجاب على نفسه، ولم ينتظر إجابة على سؤاله من أحد. إلا أن السؤال مر بإدراكهم كومضة فى دياجير معتمة بوعيهم. واستقرت لتفتح فى أمخاخهم المقفلة سراديب للتفكر اللائم الموحش.. توقظ أحاسيس مجهدة، لم يكونوا ينتظرون حدوثها الآن صباحًا..

مشاعر الحرج الدفين المتبادل أنام البعض ظاهريًا عن عمد حتى لا يلاحظ البعض الآخر بأن أكثرهم خاملون..

فوق الصمت أطبق صمت. أهاج الرؤوس.. أثارها بيقظة مباغتة.. لتدور الحدقات بامتعاض خلسة، تبحث عن صاحب السؤال الذى لم يكرره.. سكت.. ربما لأن أحدًا لم يجبه فورًا.. وربما هو يعرف، وأراد بسؤاله المباغت إيقاظ نفسه وتوكيد المعلومة لها.. سكت..

سؤال لم يكن له لزوم على الإطلاق.. لكنه قيل ليحرك رواكد الرؤوس المتأزمة لمجرد السماع..

(هو النهاردة كام فى الشهر العربى..؟)

عجوزًا كان قد سال، وأسند دماغه على جدار العربة وغفا.. أشيب الشعر.. وجهه المجعد ساكن الملامح.. شاربه المهوش تنفره أنفاس أنفه وفمه المفتوح فى نوبة الغفوة.

كادت أعينهم تتصادم لتبادل الاتهامات بالجهل.. لكن الصمت المشين المطبق تناسل وغمر الأبدان وغلف الجو.. كسا المشاعر بخيوط عنكبوتية.. صمت ظل قائمًا ومستبدًا.. أدار الأمخاخ الناهضة تتمطى بحنق النظر إلى العجوز السادر فى غفوته.. صمت مخنوق مأسور.. لم يفك أسره إلا توقف القطار السكير المعربد ليلفظ أحشاء جوفه فوق الرصيف.. رؤوس.. تتفرق.. تتباعد.. تتوارى هاربة نحو أبواب الخروج.

جريدة المساء

فقدان الحواس

كالعادة.. حملنى قطار الصباح.. اندفعت ملهوفًا اخترق زحام البشر.. وجدت لنفسى مقعدًا بجوار النافذة فلأسند الرأس ،أغفو..

تكاثر البشر، فداخلتنى طمأنينة كلما اشتد الزحام، تعسر وصول المحصل لركنى هذا القصى، ربع جنيه بالجيب.. مصروف يدى اليومى لم يعد كافيًا.. لو فكرت فى العودة بنفس المواصلة سأحرم الجوف من ساندوتش الضحى.

كان القطار ينطلق نحو الفراغ البعيد وكنت أرهف السمع، رغم تكاثر البشر، لصوت تمزيق ورق التذاكر وقع سيئ برؤوس ركاب الصباح المتجهين نحو المدينة لتأكلهم المصالح والإدارات وقع يربط الشعور بين رغبة منح التذكرة والاحتفاظ بالثمن والتناسى وتوقع لحظة المطالبة والإحراج.

كانت عينى بالخارج، وحواسى المتجمعة بأذنى لعله يجىء يقترب فاستظل بالصمت والسرحان، واصطناع بالتفكير.. ربع على ربع يكون نصفًا ونصفًا على نصف يكون..

وهكذا نوفر للبيت ثمن كيلو لحم مثلج.. يشد من عصب العيال.

وتتوالى المحطات.. ينزل الناس.. يركب آخرون..

كان الكرسى المقابل لى مشغولاً برجل وامرأة.. كانا يتهامسان ويختلسان لوجهى المتجه شطر الخارج نظرات لا تكاد تبين إلا أننى ألمحهما جيدًا.

أشعرانى بالخجل وقد أوضحا بالعيون أننى فضولى وعلى أن أغض من بصرى.. ارتبت ربما يتحدثان عنى يحسان بشعورى. التفت بوجهى نحوهما متعمدًا.. لكن الرجل غض بصره وقال لامرأته سائلاً..

- أين تركت البنت؟

كانت المرأة تختلس النظر نحو الممر المزدحم كأنها تراقب بالسمع ما سوف يأتى.. أعاد هو السؤال..

- عند أمك.. أو عند أختك؟

قالت.. هذا مثل ذاك.

قال هو وكأنه بالفعل مشغول الذهن..

أين هى. أقول؟

قالت وهى شبه غائبة عن الوعى:

قلت لك عند ماما..

- أنت قلت؟

- طبعًا قلت!

- لكنى لما أسمع؟

- ها أنت قد سمعت..

قال بضجر خفى.. ماما.. ماما قلت لك مائة مرة لا تتركى البنت عند أمك.

- ومال ماما؟ ها.. مالها؟

- أمك امرأة عجوز.. لن تراعى البنت جيدًا، قالت بتهكم واقتضاب.. خلاص.. لا تزعل نفسك أقعد أنا بالبيت وأرعى البنت.

سكت على مضض وهو يتوجه بالنظر صوب الأبدان المتلاصقة بنظرة مألوفة تتجمع بها كل الحواس بالأذنين ليفقد المرء حواسه بعد النزول.. قال اسكتى الآن بعد النزول نتفاهم.

اخترق أذنى صوت تمزيق الورق وقرع القلم فوق ظهور المقاعد.. أسلمت أمرى لظروف لم تزل غامضة ربما أفقد قروشى القليلة.

كان المحصل بعيدًا بالنسبة لمكاننا المحاط بالبشر.. هدأ القطار من سرعته وهو يقترب من المحطة، والزوجان يعالجان بجسديهما عملية التملص من بين الركاب.

وقفا هناك والمحصل يقترب قاطعًا تذاكره لمن صادفه من الركاب مصطنعى الصمت والشرود.

حين توقف القطار نزل الزوجان بخفة طفلين صغيرين.. وكنت ألحهما وهما يتجهّان معًا نحو مبنى هيئة البريد الكائن بآخر الخط.

تعمدت الانشغال بهما فقد هيمن دنو المحصل على حواسى.. انشغلت بشكل جدى عن تمزيق الورق وقرع القلم.. والزوجان يسرعان فوق الرصيف قبيل تحرك القطار ليصعدا مرة أخرى من الباب الآخر لنفس العربة حيث لا يوجد محصل هناك؟

جريدة المساء

ماء القصب

- ١ -

فى الثانية ظهرًا، قبضوا عليه متلبسًا بالقصب.. عائدين كانوا من بيوتهم القميئة المتطرفة بحذاء المدينة وكان يحمل فوق كتفه حزمة القصب، يتخطى فلنكات السكة الحديدية بخطو وئيد واهن، وبين الحين والآخر، وبعد كل مسافة، ينظر إلى الوراء، يستطلع أفق السكة التى بين المزارع المتاخمة للمدينة، يطمئن قلبه لخلو القضبان البعيدة، يعدل نفسه، تدور الحزمة، ويواصل المسير الوئيد..

وهناك فوق الرصيف، كانوا ينتظرون قطار الضواحى وينظرون إليه، ينتظرون قدومه وهو يصعد منحدر الرصيف.. بارتياب منهك، حوطوا بدنه الضئيل المجوف حامل القصب.. عشرة أعواد بيض مربوطة بحزام من قش الزعازيع.. أوجس.. بعد يوم عمل شاق فى ربط مسامير الفلنكات والتأكد من

سلامة القضبان، ومروره اليومى ذهابًا وعودة بكبد الشمس. يوجس.. يرتعد.. وجوه داكنة وجهمة.. مصمتة.. تنذر بالغموض والخطر.. أوقف التوجس.. نظر وأجفل.. تحرك خطوة.. تحركت أقدام الحذر المتحفزة: توقف.. التصقت قدماه المنتعلة حذاء مكعوبًا يحف بن طين متيبس»..

أدرك أنهم مخبرون ريفيون يزاولون العمل التعسفى. فكر.. لا ليسوا لصوصًا كما ظن، أو قطاع طرق.. مخبرون.. إنهم يقصدونه، فليس بالمكان آدمى آخر «يتلفع» بقصب سواه.. ظل مبهوتًا.. يرقبون تصلب جسده المذعر.. حسبوا صمته خداع لص يبغى المراوغة والهرب فحاذروا وتدنوا.. فكر، لو كانوا لصوصًا لهان الأمر، لترك لهم الحزمة ومضى.. لكن فظاظة الأكف تثاقلت فوق الكتف والقصب.. قال الأول:

– وقعت يا لص الحقول يا نتن..

قال الثانى بصوت المندهش:

– أنت إذن لص القصب..؟

عبثًا راحت محاولاته لعتق الكتف من القبضات...

– أنا لست لصًا.. أنا عامل ضمن عمال المقاول التابع لهيئة السكة..

– أى هيئة يا لص.. تعال..

الثالث الذى بالوراء دفعه. انخلعت القدم عن الحذاء. نحيلة مترية.. كف الرجل مطرقة دقت الظهر.. لفظ سعالاً احتقن له الوجه الرهق. ارتجت الحزمة وكاد ينكفئ.. توسل:

– هذه حزمتى. اشتريتها من بائع كان يسرح على مدخل كفر الدوار..

سخروا فى مجون وقالوا:

- وجئت من كفر الدوار وهو هكذا فوق كتفك؟ غلبان..!

- يا عينى. ماشيًا تعد الفلنكات؟

- مسكين يا لص يا نتن...

نعق قطار الضواحى من بعيد.. يد الثالث تدفع مؤخرة الحزمة.. ارتج البدن الخائر مع صوت النعيق الآتى.. صعب هو الانعتاق.. صوت النعيق يزاحم تجاويف الضآلة فى البدن.. دوار.. دوار..

- قل هذا الكلام الفارغ فى النقطة..

مشودهًا قال:

- منذ زمن بعيد أشترى القصب من تلك النواحى، وأركب به القطار، ولا أحد يعترضنى. فقط لأنكم مستجدون ولا تعرفوننى:

احتقن وجه المخبر الأول. اغتاظ، وسحب عود قصب من الأمام ليجرجر به الرجل. لكن العود انسحب بيده وحده، مجرجرًا المخبر إلى الوراء. أصابه الحرج.. كسر العود على ساقه إلى ثلاث قطع. راح يمتصه بلذة..

- هيا القطار جاء..

قال المخبر الثالث الذى بالوراء، وشد عودًا. أمعن به النظر والثانى يقول:

- لو كان غير مسوس هات عقلة..

كان منخورًا بالسوس. أعاده إلى الكتف وسحب آخر والقطار يدخل الرصيف بوهن. والأول يقول باستغراب:

- تسرق قصبًا يا غبى.. قصبًا..؟!

يركبون.. أضراس سوداء تعصر.. تطحن.. أصوات تقزز.. أقعى الرجل.. أسند ظهره إلى ظهر مقعد. قرفص.. بدا ككومة قش مربوطة بجلباب رث. والحزمة إلى جواره.. قال بصوت متخاذل..

– على كل حال الصول الذى بالنقطة يعرفنى..

واسعة أشداق الرجال. بلذة يمتصون. يقشرون. وينزق، يقذفون المصاصة من النوافذ..

-٢-

حين توقف القطار بمحطة مصر، كانت حزمة القصب قد امتص نصفها..

تبادل المخبرون الثلاثة النظر.. فكروا بترك الرجل المقعى يجتر صمت حزنه للمجهول الآتى.. فليأخذ النصف المتبقى ويمضى لحال سبيله لكن صمته المطمئن مريب.. أوجس رؤوسهم. لعله متمكن – رغم أسماله – من معرفة سلطوية أكبر من الصول..

يتوجب حيال توجسهم المشبوه تبرئة أنفسهم بعمل محضر فعلى بالنقطة، أو يكتفون بتسليمه بنصف الحزمة خمسة عيدان، وهناك يتم التصرف بمعرفة مسئول النقطة..

-٣-

استعد الصول للانصراف. ارتدى غطاء الرأس. شد أطراف سترته البيضاء.. لمس بأصابعه أزرارها النحاسية المطموسة.. توقف على باب النقطة يتابع بالضجر وجوه البشر المتوافدة عبر الأبواب. يسعون بدأب – بعد انفراج أبواب المصالح عنهم – صوب قطار الضواحى.. لم يلمح وجه صول النوبة

الثانية.. تقزز فقد توجب تواجده الآن قبل حلول الساعة الثالثة - تذمر - موعد انصرافه قد آن..

أشار لجندى حراسة الباب. قاعدًا كان فوق حجر، ساندًا للحائط ظهره. يؤرجح بندقيته العتيقة بين ساقيه، يطالع بنظر كسول عنوان جريدة لرجل سائر بخطو وئيد يقرأ مانشيت الرياضة. والجندى يفكر.. (القضاء على الإرهاب..) قال الصول وقد تجاوز الجندى:

- خذ بالك من النقطة.. الصول الجديد على وصول..

وانصرف والجندى يومئ برأسه المرتخى.. طيب.. طيب. لم يأت الصول.. جاء المخبرون الثلاثة، يحيطون بالرجل المضعضع وقد ازداد ضآلة تحت حزمة القصب حافية قدماه ومشققة.. يجرهما..

فراغ النقطة أوحى للمخبرين بالسكون.. أهمد بروؤسهم التوجس.. فكروا فى مزاولة العمل اليومى المألوف.. المرور فوق الأرصفة، حول القطارات.. الانسحاب خلسة - ضمن المرور - إلى خارج المحطة حيث السوق المزحوم بالخلق والباعة لتصريف الوقت والحصول على ثمن الرضا والبقاء من باعة احتلوا جوانب الشوارع..

وضعوا الحزمة بحجرة النوبة إلى جانب مكتب الصول الغائب.. ووضعوا الرجل فى غرفة الحجز، وأوصدوا بابها.. اطمأن المخبر الأول. تمطى، وقال:

- بماذا نبدأ..؟

قال الثالث وهو يتحرك:

- نبدأ بدورة المياه.. أنا مزنوق.

قال الثانى وهو يغادر إلى الرصيف:

- نترك خبرًا لجندى الحراسة أن يبلغ الصول عندما يأتى أن يحرر محضرًا بواقعة القصب..

أتبع الأول خطو الثانى.. قال:

- أو نفتح نحن المحضر غدًا.

لحق بهما الثالث. قال بأسى مفتعل:

- العيال يريدون اليوم طبخ سبانخ باللحم..

- أيوجد سبانخ فى الصيف يا رجل؟

- المرأة نفسها فى السبانخ..

- فى السبانخ حديد.. حديـ يـ يـ يـ د..

تخابث الثانى وضحك:

- لعل تريد طلوع الجبل بالليل..

- بالليل وكل ليل وشرفك النصف نصف..

تضاحكوا. وتلاشوا وسط الزحام، ويذكر أحدهم ترك الخبر لجندى الحراسة الذى أتعب مؤخرته الحجر. فتوقف وهو يؤرجح البندقية فوق كتفه..

- ٤ -

حط الليل فوق المحطة.. جاثمًا.. احتوت الأرصفة القطارات فى نوبة بيات، والصمت يتوالد. يجوس البواكى مع جندى هزيل هده طول التجول، وبندقية يؤرجحها بذراع لطرد النعاس المراوغ..

تهاوت النقطة فى الصمت..

كان الصول قاعدًا وراء مكتبه الصفيحى الصدئ، فوضوى الشكل. وحيدًا.. تعبث يده المعروقة فى دفتر الأحوال بذهن غائب.. تراوده حزمة القصب. يفتح جريدة المساء. (القضاء على الإرهاب..) والحزمة تراوده.. يطوى الجريدة.. مجاورة الحزمة وفى متناول اليد. كسر عقلة من أسفل عود. امتصها بلذة حين رأى العود قصيرًا وسط الحزمة، أخذه، وابتلع ريقًا حلوًا.. فكر.. نوبات العمل بنقطة ميدان الشهداء أفضل.. أمتع كثيرًا. إلى جانب السوق هى..

سحب العود القصير.. قشره.. رائع هناك الليل، يؤنسه الباعة والأضواء والحركة. وأشياء أخرى تمد الجوف بالدفء وتوقظ الدماغ.. قشر بأسنان قاطعة وحادة.. الصمت هنا والوحشة الليلية تسوق البدن إلى الخمول والخطر.. هناك فى الميدان تمتد أيدى سائقى «المشروع» بثمن المرور فى الممنوع.. بين ضفتى الشهر نهر غير آمن، يتوجب العوم فيه والطفو..

تحت القدمين والمكتب تراكمت مصاصة العود الأول.. نقص من الحزمة عود.. لمن هذه الحزمة؟ من جاء بها لحده؟ ما موقف صاحبها عندما يجدها ناقصة؟..

عودًا آخر شده.. امتصه.. ابتلع سكره بنهم النشوة.. فى هذه النقطة المعزولة، تتكاثر المهاترات وفك التحام المشاجرات بين الركاب.. تحويل النشالين إلى القسم الرئيسى، أو استدعاء الإسعاف لنقل جثة مهروسة..

صوت التقشير الذى يخرق الصمت أبهجه. أسعده.. عصر الأسنان النهمة والأضراس. تحريك الشدقين والفكين يمنحه شعورًا عظيمًا يؤكد مدى قوته رغم تعديه الخمسين.. عندما أوغل الليل فى القدم، وتطايرت نسمات

البرودة.. كانت الحزمة قد صارت قشورًا معصورة وزعازيع.. نفض ثيابه. سلك أسنانه.. لملم المصاصة من تحت المكتب. وخرج..

نثرها، متفرقة، ومتباعدة فوق الفلنكات. بين القضبان والقطارات.. حين انتهى، فتح أزرار بنطلونه.. نظر حوله.. راح يتبول بكثرة.. ولذة..

مجلة الثقافة الجديدة ١٩٩٨

الزمن الجريح

تسلم الشرطى أوراق المتهم.. تعهد القيود والمفتاح.. تثاءب.. انكمشت فى الوجه التجاعيد.. استقبل باب غرفة الحجز المواجهة لمكتب الصول..

تناثروا.. رجال الليل والشراسة.. متجهمين، وملقين.. بإهمال فى زوايا الغرفة..

فركوا العيون المصدومة بضوء انفتاح الباب القذر.. بإصبع تكلس جلده.. لكز الشرطى رأس مسترخ.. مرتكز على الحائط المسود:

- قوم قدامى.

تحرك الرأس المتخم بالتعب والنعاس.. نهض البدن الكسول.. تثاءب.. وفى بطء.. سبق الحارس إلى الخارج وتوقف يراقب وجه الصول..

أوصد الحارس الباب.. وجاور المتهم الواقف.. قال:

- هيا..؟

مد المتهم يده اليسرى.. لف الحارس حولها القيد.. وأغلق الطوق بالمفتاح..

أودع المفتاح جيبه.. وأمسك الطوق الآخر بيده.. وغادر باب القسم..

توقفا على الرصيف المواجه للمبنى المهيب..

الشارع تزاحم أشجاره السيارات الملاكى والأجرة.. وعيون الصول تتبعثر فوق التاكسيات المارقة.. قال:

- أمعك نقود؟

- معى..

- أنا ليس معى..

- أعرف..

صمت الحارس على مضض..

وتابع سيل السيارات..

قال المتهم:

- أتريد نقودًا..؟

- لا أحب السلف..

- وهل تعتقد أنى أسلفك..؟

- لماذا سألتنى إذن..؟

- لأنك سألتنى.. وأنا أعرف أنكم دائمًا مفلسون:

- لكن لى راتبًا..

- ملاليم..!

- إذن لن تسترد حقك منى.؟

- وكيف أسترد حقى؟ هل سأراك ثانية؟

- يمكن.. ويمكن لأ..

- طبعًا.. لا.. لأنى سأغيب فى السجن هذه المرة..

- وأنا أتنقل كثيرًا بين الأقسام..

تقدم الحارس خطوة.. أشار لإحدى سيارات الأجرة.. لم يبال السائق.. ومرق.. قال المتهم..

- عملك هو حراسة المتهمين فقط..؟

- فقط.. حراسة المتهمين.

- لم يهرب أحدهم منك مرة..

- كيف يهرب وأنا معه؟، ولو هرب.. أين سيذهب..؟

- سوف تجده..

فى عينى الحارس لاح أتوبيس قادم على البعد.. تقدم خطوة أخرى ليكون فى وسط الشارع.. مخلفًا فوق الرصيف، أخذ المتهم يراقب ذراع الحارس تلوح لسائق نفاه بهزة رأس وتجاوزه مارقًا..

تراجع إلى جوار المتهم مغتاظًا ومتوعدًا.. قال للمتهم الساكن.. مكررًا:

- معك نقود..؟

- وأنت.. أليس معك..؟

- فقط.. لندفع ثمن تذكرة الأتوبيس

- آه.. وأين تذهب نقودك..؟

- أية نقود..؟

- راتبك..

- .. المرتب.. الملاليم..؟ يذهب للبيت..

- ولا تأخذ منه مليمًا..؟

- يضيع فى أول يوم من الشهر..

- آه.. عندك عيال إذن..؟

- عندى..

- يخنقونك

- مصاريف كثيرة..

- فى مدارس؟

- مدارس.. ومعاهد..

- وطعام.. وملابس..

- وغلاء فاحش.. وناس بلا رحمة.. سألتنى كثيرًا..

- يبدو عليك الإجهاد.. الإرهاق.. صعبان علىّ..

- والذين تسطو على جيوبهم.. ألا يصعبون عليك..؟

- عملى.. ولا أتقن غيره.. مع أنى أكرهه.. لكن لا عمل لى سواه..

- أكل عيش ومجبر عليه.

- مثل إجبارك على عملك.. هل اخترت أن تكون شرطيًا؟

- كنت فلاحًا جاء من الريف وفرح بالبدلة العسكرية والنفوذ..

- لماذا لم تترك هذا العمل وتبحث لك عن غيره.؟

- رأيت الخوف فى عيون المجرمين..

- لكنى لست خائفًا منك..

- أنت تعودت على الإجرام.. لكن المجرمين الجدد يخافون..

- كلهم..؟

- بعضهم تعود من أول مرة.. ليصبح مواطنًا عاديًا يأكل من عرق جبينه..

- كيف يأكل من عرقه المسلوب.. الممصوص..؟

- أتسخر.؟ هؤلاء العائدون أفضل منك..

- هل صاحب العرق يأخذ أجر عرقه كاملاً..؟

بل صاحب العمل يأخذ النصف.. والضرائب تتولى الباقى.

- أنا لا أفكر هكذا.

- كيف تفكر إذن..؟

- أن أقضى يومى فى سلام..

- أيوجد سلام..؟

- يقولون ذلك..

– يضحكون عليك..

– مثلك..

– ... ما رأيك لو ركبنا أتوبيسًا..؟

– أنت معك نقود..

– معى.. وأنت..؟

– أم نأخذ تاكسيًا..؟

– الأتوبيس أفضل..

– طبعًا.. فهو مجال عملك..

– لعلمك يا صديقى.. أنا لا أحب اللصوص..

– حلوة «لا تحب اللصوص» هذه، وما تهمتك الآن.. غير السرقة النشل؟

– أشعر بأننى آخذ بعض حقى..

– تأخذ حقك من دم الغلابة؟

– بل من الذين يملكون.. وأنا.. مسكين..

– لأنك فاشل..

– لو كنت أحصل على حقى يومًا.. ما سرقت.. أرنى واحدًا، واحدًا فقط ممن يركبون السيارات والأتوبيسات لا يسرق.. هناك من يسرق البلد..

– البلد..؟!

– البلد لم يعد فى الرؤوس.. البلد الآن فى الجيوب..

- فى السجن سوف تغير رأيك..

- دخلت السجن كثيرًا.. ولا فائدة

- ... ما رأيك لو ركبنا القطار..؟

مواجهًا كان الشارع لباب القسم.. طويلاً.. بنهايته حى الظاهرية..

هناك محطة قطار الضواحى..

سلكاه..

توغلا فى أحراشه الموبوءة.. فهناك مساكن قديمة.. قميئة.. رجال شرسون.. وتلال قمامة.. مقاه أقبية.. حوانيت وباعة متجهمون.. يقاومون الارتياب بالنظر النارى والغضب لكل عابر غريب يطأ أرض الحى شباب السيوف والخناجر والمدى:

حين صارا بوسط المكان قال المتهم:

- اتعرف أين أنت الآن..؟

سحب يده المطوقة بالقيد من يد الحارس. أخفاها وراء صدر قميصه بجوار البطن..

قال الحارس وهو يفرك يده:

- .. بين أهلك وعشيرتك..

- كيف عرفت..؟

- أوراقك تقول ذلك، حالتك الجنائية والاجتماعية.. تسكن مع أمك المريضة بالربو. والدك بائع القلل الفخارية وقد مضى زمن «القلل».. وأختك الكبرى متزوجة.. وأخوك الحلاق.. يقولون إنه أفضل منك..

- ألم تشعر بالخوف منى الآن. وأنا هنا ..؟

- لماذا .. وقد تركتك تخبئ القيود فى صدرك؟

- إذن، أنت تحترمنى؟

- بل أحترم نفسى..

- لكن أنا لا أحترمك..

- ولا أنا أحترمك.

- وممكن أهرب منك..

- لن تقدر..

- ولو فعلت.. ماذا تفعل..؟

- لو فكرت.. سأقيد نفسى معك..

- فقط؟

- فقط!!

- أنت رجل طيب..

- هيا بنا.. القطار على وشك الوصول..

- أريد سجائر..

- اذهب وهات..

هرول.. سكن الحارس بعيدًا.. أخرج منديله وتمخط فيه.. لمح المتهم يتحدث مع الخردواتى المجاور لمقهى قريب:

عاد المتهم وهو يقول..

- السجائر السوبر أصبحت مغشوشة وناشفة..

- كل شيء أصبح مغشوشًا وناشفًا..

- حتى الوضع الحالى؟

- ابشع.. لا نقود.. ولا أخلاق.. ولا مزاج.. ولا..

- خذ.. أشعل.. الصحة أفضل أم النقود..؟

- النقود.. بعدها الصحة.. ماذا تفعل الصحة بلا نقود؟

- أن تكون قويًا..

- القوة بالنقود..

- أتحب النقود..؟

- وهل يوجد من لا يحب النقود..؟

- لذلك أنا آخذ النقود.. وأحافظ على الصحة..

- وتفقد كرامتك؟

- كرامتى..؟

- انظر لنفسك.. وأنت مسحوب هكذا.. كأنك خروف..

- خروف..؟

- بل عهدة، مثل البدلة والبيريه..

- والحذاء..؟

- والحذاء..

- ولو فقدت هذه الأشياء..

- أجيء بغيرها..

- ولو فقدتني أنا..؟

- سأفقد نفسي طبعًا..

- وهل أنت الآن غير مفقود..؟

- أرجوك.. لا تذكرني بنفسي..

- هيا.. هيا..

- بنا..

- تعال أولاً نشرب شايًا.. ونعدل المزاج..

- على مقهى اللصوص؟

- هل تخاف اللصوص..؟

- ولا هم يخافون مني..

- لماذا..؟

- اسألهم..

قعدا.. تفصل جسديهما منضدة.. وضع الحارس ذراعه.. والأوراق.. وضع المتهم علبة السجائر إلى جوار الذراع وقال وهو ينهض..

- ماذا تشرب..؟

- سحلب..

- توارى فى المقهى..

تناول الحارس سيجارة وأشعلها.. واختلس نظرة نحو باب المقهى.. راودته رغبة فى أخذ سيجارة أخرى وإخفائها فى جيبه قبل عودة الآخر.. رفع إصبعه ليقرب العلبة من كوعه.. ضرب مؤخرتها بإصبع.. حين أطلت رؤوس السجائر.. خفق شىء فى صدره.. ضايقه.. جعد فمه وغضون الوجه.. أعاد العلبة بالإصبع إلى مكانها برفق وهو ينظر لباب المقهى مضطربًا.. ثم أزاح السجائر المطلة.. شعر براحة وقد لمح المتهم قادمًا.. قال المتهم وهو يسحب سيجارة بإصبعين..

- لماذا سحلب بالذات..؟

هرس الحارس سيجارته بحذائه وهو يقول:

- لم أفطر بعد..

- ما رأيك فى فول وفلافل..؟

- ماشى..

ألقى المتهم سيجارته فوق المنضدة دون إشعال وهرول مبتعدًا..

إلى جوار الكوع كانت السيجارة.. يمكنه الآن أخذ هذه وإخراج لفافة أخرى ووضعها مكانها.. فقد ألقاها المتهم بضيق كمن يود التخلص منها.. فليأخذها..

إلا أن تفكيره لم يساعده لفعل شىء.. اغتاظ من نفسه لتتفاقم غضون الوجه..

جاء المتهم بالفول والفلافل والخبز الساخن..

وجاء الساقى بالماء.. قرب فمه الغليظ من أذن المتهم..

- إلى أين يا صديقى..؟

كان همسه فظًا وعاليًا.. قال المتهم:

- فترة نقاهة.. راحة.

كان الحارس قد انهك فى تناول الطعام.. راحا يلتهمان وجهًا لوجه.. قال الحارس وفمه المملوء يلوك الأكل:

- لا توجد راحة.. لا هنا.. ولا هناك..

- هل جربت السجن..؟

- أنا فى السجن منذ دخلت الخدمة..

- كُل..

- كُل..

* * *

مزدحمًا كان قطار الضواحى.. بطيئًا.. يأكل الأرض ارتكن الحارس بظهره المجهد على المقعد.. وغفا إلى جواره المتهم يدخن فى صمت.. يتطلع عبر النافذة حيث يتسحب الكون إلى الخلف.. راوده شعور بالخبث.. حدس بأن الحارس اللئيم يتناوم ويرقبه بطرف عين.. كلما توجه بنظره نحو النافذة.. ابتسم.. ومضى ينقل النظر بين الحارس والنافذة فى محاولة لضبط العين متلبسة بالمراقبة.. لكن حين أرعش الشخير شفتى الحارس.. تساقطت من يده الأوراق.. تأكد المتهم من سوء تفكيره..

هز رأسه وانحنى.. تناول الأوراق بهدوء... طواها جيدًا وأودعها صدره إلى جوار قيده المخبوء..

على حذر نهض.. ببطء شديد.. وبإصبع مدربة.. أخرج شيئًا من جيبه.. أدناها من جيب الحارس.. فتح الزر برفق.. ودس شيئًا فى الجيب الأيسر.. ثم أغلق الزر وجلس كما كان..

لمح أعين الركاب المجاورين تتجسس بفضول غبى..

أعاد العيون لمحاجرها بنظرة وعيد وتجعيدة وجه مزمجر وشرس.. ثم ركن رأسه على مسند المقعد.. وغفا.

* * *

استقر القطار فوق الرصيف فى ظل المحطة الكبيرة..

لفظ ركابه والإنهاك.. أبدان جموع غفيرة تسعى..

امتدت يد الحارس لجيب السترة الأيمن..

أخرج مفتاح القيود وهو يقول:

– هات القيد لأربط نفسى معك.. الضباط أكثر من الهم على القلب.. ولا نريد مضايقة..

مقيدان.. شقا طريقهما بين الأبدان المنهكة.. قال الحارس:

– يبدو أننا تأخرناعن النيابة..

– لا تشغل بالك نذهب غدًا..

– غدًا! وأين أقضى الليل..؟

- عندى فى البيت..

- لا سوف نلحق.. هات الأوراق..

- أخرج الأوراق من صدره، وقال:

- وتركبنى تاكسيًا على حسابك..؟

- أنت معك.. فتش تجد..

- بل معك أنت..

كان الميدان مغمورًا بالشمس والبشر..

أخرج الحارس المفتاح وفك طوق يده.. أخفى المتهم القيود بيده وراء القميص..

حين أعاد الحارس المفتاح لجيبه الأيسر.. شعر بوجود نقود ورقية بالداخل.. غمره سرور.. واطمأن قائلاً:

- هل سرقت أحدهم فى القطار..؟

- أبدًا.. أخذتها من صديق فى المقهى..

- إذن.. خذها.. السجن يحتاج إلى نقود..

- أنت تحتاج إلى النقود أكثر منى.. وأنا أتصرف فى السجن..

- ملعون أبو النقود..

- ملعون أبو النقود..

- ... أريد أن أتبول..

- اذهب إلى محطة البنزين بجوار مديرية الأمن..

- نعم.. سأدخل.. انتظرنى هنا.. ولا تظهر القيود، ربما يراها أحد الضباط فيؤذينى..

- اذهب ولا تخف.. سأنتظر..

توارى الحارس وراء باب المبولة..

اقترب المتهم من الباب المفتوح.. نظر بنصف عين إلى ظهر الحارس.. مطمئن القلب.. شاردًا كان بكل حواسه متذكرًا امرأته وأولاده والعمر المنصرم.. ومحاولات إرضاء الجميع .. وموعد العودة مساء.. فى الجيب تقبع النقود..

ابتسم وقفل عائدًا.. كان المتهم قاعدًا فوق السور القصير الذى يحوط مبنى المديرية.. ينتظر..

أخرج الحارس المفتاح.. قيد نفسه مع المتهم.. تقدما نحو المدخل الكبير المدجج بجنود الحراسة.. وتواريا هناك..

جريدة الشعب ١٩٩٥

يوم آخر

[وقد قال السيد الوزير ردًا على سؤال وجه إليه من أحد أعضاء المجلس..
إنه بالإنتاج - نستطيع الارتفاع بمستوى الفرد -].

- الشاى..

وَضَعَتْ الكوب فوق المائدة.. وولتنى ظهرها.. أطحن الجبن والخبز
بأضراسى أزيحهم بالشاى.. [وبالإنتاج نرتقى بالمجتمع.. و..] أقفلت المذياع..
أكملت فطورى.. عادت لتقول:

- أسرع.. القطار سيفوتك..

دخلت فى حذائى.. استعذت بالله وتوكلت.. تناولتنى السلالم، قالت فى
أثرى:

- مع السلامة.. لا تنس البرتقال..

أمـد الخطى فى طين الأرض اللازج.. أتفـادى أطفـال المدارس.. أصـعـد جسر قطار الضواحى.. تمنيت طويلاً لو ارتقيت السلم الوظيفى وحصلت على مرتب يمكننى من تغيير هذه المواصلة السلحفاة.

تحسست جيبى، بقاعه بعض سجائرى.

شديدًا كان زحـام المحطة – حين ظهر القطار من بعيد. تحفز الناس – عندمـا جاء، حشـرت نفسى بين اللحم والثياب والعـرق.. أشـرئب برأسى، أستنشق هواء لا يخلو من دخان غريب الرائحة.. ترتج كتل اللحم مع ارتجاج العربات.. قرقعة العجلات. على عمل من يوم أمس لم ينجز.. سمعت صوت المحصل مددت ذراعى لأستخرج ثمن التذكرة.. صرخت امـرأة.. بكى طفل.. شخط رجل.. الجيب بعيد عن متناول يدى.. محشورًا كان.. تأوهت امرأة.. رفعت أخرى سلة خضار فارغة إلى أعلى.. أسواق وسط المدينة أرخص.

تهادى القطار بين الظاهرية وسيدى جابر.. سادت القلاقل والغمغمة – تساؤلات... ضيق.. تداخلت أصوات رويدًا..

بدأ القطار فى التوقف.. زأر الرجال فى غضب.. توقف القطار تمامًا.. لا مواصـلات أخرى بهذه المنطقة.. تحركت أبدان.. تذمرت النساء.. اختلطت أصـوات.. تعلو.. ويعـدين؟! كل يوم؟! متى يطلع طوالى..؟ زفت.. يلعن.. خل بالك.. الأرض نفسـهـا تعبـانة.. المفـروض يلغـوا هذا الخط.. هـا نحن هنا قاعدون.. فلنر آخرتها..؟ اتأخرنا.. يا عالم عيب.. ننزل وندفع القطار.. هأ هأ هأ..

لعنت كل شىء، هبطت مع الهابطين.. أبصرت القضبان الممتدة بطول الطريق قد زُرِعَتْ بالناس.. واقفون على مضض وصمت.. قاعدون على القضبان.. متقابلون ومتفرقون.. يتطلعون إلى الفضاء المترامى آملين فى

تحرك القطار، يتمنون حدوث معجزة تهبط من أعلى تدفع العربات وتنقذهم من ضياع يوم آخر.. الوقت يمتطى التجاويف، يلهب الأجساد بالقلق.. تناثرت أبدان أخرى عند الأودية المؤدية إلى شارع أبى قير، ذلك البعيد.

.. فكرت فى إمكانية وجود موضع لقدم الآن فى أى أتوبيس.. ونصف أفراد المدينة - العاملين - تحملهم هذه القطارات كل صباح.. بقيت.. ولا بشير يبشر بقيامه.

- خذ يارجل.. اقعد..

قالها رجل إلى جوارى، وناولنى صفحة من جريدة الصباح.. افترشتها مثله على القضيب وقعدت.

- نصف عمرنا يضيع فى هذه المواصلات..

قدمت له سيجارة.. دخنا فى صمت.. قال:

- إجازاتى كلها انتهت هنا.. بين قطار معطل وحادثة.

- فى المصلحة لا يرحمون المتأخرين..

- يجب أن تصلح الشبكة الحديد قضبانها..

- التذكرة أصبحت بشلن.. قلنا ماشى.

تعلقت سيدة بسياج الباب، مدت قدمها وهبطت.. أسرعت متباعدة وهى تحمل عمود طعام - نكست رأسى - تفحصت عمودًا بدأ نصفه من الجريدة التى تحتى، أتابع حروفه، كنت أفكر بالوقت نفسه [وبارتقاء الإنتاج وجودته..] انتهيت أمس من توصيل خطوط الوصلة الأولى من الكابل المعطل.. [يمكن التقدم وملاحقة الركب ومواكبة الدول المتقدمة، فلدينا من..] إن لم ينته الكابل اليوم سأضطر للمساءلة.

- يبدو أنه لن يتحرك.. ويلزموننى بتعطيل مائة خط تليفونى.. [المهـارات ما تدهش عقول العالم الأكثر تقدمًا..].

- يلعن.. وجودى فى البيت غلط.. طوال النهار - اسكت ياولد.. اسكت يا بنت.. (فلو..) هات فلوس.. تعال ساعدنى.. كلام فارغ.. [فلو وضـعنا تلك المهـارات].. البالوعة مسدودة من أمس، انحشرت فيها خشبة.. قلت أسلكها حين أعود.. خذ ولع.. كان يقول: قدم سيجارة.. وسكت.

يوم آخر تصطلى فيه رؤوسنا تحت الشمس وندوخ - كان القطار النائم... بعض الركاب.. غارقين كانوا فى صمت غريب.. أشعلت لصديقى سيجارته - وهو يقول:

- أرجع أحسن إلى البيت.. وأسلك البالوعة..

قلت وأنا أنهض خذنى معك.. وأردفت أقول:

- بكم كيلو البرتقال؟.. لم يرد.. وافترقنا..

نشرت فى مجلة «المنهل» السعودية ١٩٩٧.

ليل النفق الطويل

كتبوا العنوان فوق المظروف الأصفر.. منحونى نقودا لزوم السفر والانتقال، وأكدوا على أن أجد العنوان، وإقناع الرجل بالحضور، فهو أعدل الرجال لمناقشة محتويات المظروف، أودعت النقود فى جيب قميصى، وشبكت كم البلوفر المثقوب بدبوس وانتويت الرحيل.

استقبلنى غبش الفجر البارد. أخوض الأرض المنداة إلى محطة القطار يحدونى أمل بهيج بلقاء الأحبة القائمين بالقاهرة انغمست مع الركاب الفجريين مكدودون لحد النعاس.. طلاب منهكون يراجعون الكتب والكراريس بأعين كابية تتحدى الإجهاد. باعة جائلون يحاولون تسليك الحناجر بنداءات معلقة بها بقايا نوم لم يكتمل.. نساء منكمشات ملتفعات بفوط الوجه والجلاليب.. وبرد مدبب ينسل عبر فتحات النوافذ المكسورة ينخر العظام، وينغرس.

ارتجفت، وانكمشت.. بدايات شق الدماغ.. نزعت الدبوس وأغلقت فتحة قميصى.. بدا الثقب دائريا كبقعة بيضاء..

ارتعد القطار وتحرك.. فارتعدت.. دعوت ألا يتسرب الصداع لرأسى كعادته فى أوقات السفر.. أوقدت سيجارة على جوف خاو، أخرجت كتابا مخبوءًا بالصدر. مغبشة كانت كل السطور، مطموسة الكلمات، ورأس بارد لم يستوعب قسرا.. أنفاس الركاب أدخنة تتقاطع.. تتقابل..

لو ترتفع الشمس من مكمنها النائى.. وراء الحقول.. تغمر الكون.. تدفئ الحديد المنطلق، وتحمص الأبدان المرتعشة.. غادرت باب الحديد.. الشمس فى الأعالى، وأنا على الأرض ارتعد بحثت بعين متحدية شعاع الشمس عن تمثال رمسيس..

كان واقفا هنا.. متشامخا فوق حوض الماء المتسع والمتجدد دائما يرطب برذاذه وجوه دائريه، فكرت.. ربما نقلوه لمكان آخر؟ أو أحالوه على التقاعد.. أو سأم طول الانتظار.. ربما تلمظوا عليه وأشاحوا عنه الوجوه..

فحمل حوضه وأثر الرحيل لبلد آخر يعرف أهله قمية وقوفه على باب المحطة، يستقبل الغرباء ويحرس الزمن..

أوعزت ذلك لنفسى..والشمس تنفذ لمسامى..

اتجهت لموقع التمثال حيث مهبط النفق.. فكرت حين رأيت البشر، أن أهل القاهرة جميعا متواجدون فى الميدان، يمشون.

ـ كل البشر. أمامك.. ينزلون النفق.. أنزل وأسأل أحالنى جفاف الريق إلى التوق لطبق الكشرى المألوف عند امتثالى لوجه القاهرة المتغير. فلأفعل حين أعود. بالموافقة، البشر يتدفقون بلا انقطاع نحو مهبط المترو أملس الدرج.. فكرت، هل القاهرة تعيش فى الأنفاق؟

أحمل راسى لئلا يرتج.. يتوجع، بخطو وئيد، أهبط الدرج. يتوجب الآن نزع الدبوس عن الصدر واخفاء الثقب.. لم أجده ينبغى موارة الثقب.. أعين

المتطفلين تختلس النظر، ويتغاضون.. يتيحون الفرص ليوارى المثقوبون ثقوبهم، ثبت الذراع فوق المظروف كطلبة المدارس المرفهين، اختنق. لعنت وقت أقدامى للتبرع بالسفر.. ألابد من هذا الرجل؟

أليس هناك عادلون غيره..؟

لكن، متأكد أنا ـ الآن وفوق رصيف النفق ـ من أن أغلب أهل القاهرة الدنيويين مثلى متواجدون بالنفق، والأثرياء مروضو التماسيح معاشرو الخنازير، يجوسون بأعلى خلال أذرع وأعين العسكرى المصلوب.. قطعت تذكرة لحلوان.. مروع النظر ومبهور ملساء الجدران.

وأرض ملساء صناديق من الزجاج البللورى تحتوى على تماثيل لملوك الفراعنة.. حدقت مدهوشا.. ها هو تمثال رمسيس محبوس فى صندوق زجاج صغير.. كيف انكمش وتوارى فى النفق؟

إسم أنور السادات بارز بالجوار.. أدركت.. متواجد أنا فى حضرة السادات.. هو أيضا متواجد.. لم يمت بعد.. على الحائط معلقا فوقى..

تألق البشر.. يسحبنى مظروفى أجوس وسطهم متعمدا بطء الخطو.

حاملا رأسى المثقوب.. أرجو ألا يتسع الثقب..

حوط بدنى المترو، قعدت بجوار نافذة، توارى الثقب جوارها. جلست إلى جانبى امرأة عجوز، متصابية، ومتأنقة لحد لافت للنظر.

امتلأت برائحة عطرها الفواح.. اختنق، سعلت موجها فمى شطر النافذة.. حيث بدأ ظلام النفق بانطلاق المترو تنظرنى بتقزز وتعال بعينين معكوستين فى الزجاج.. لم التفت أخذت.. أحاول جاهدا أن أشغل النفس بالتركيز على شىء محدد. أخرجت المرآة ورأيت وجهها المتصلب يحدق فى.

تشاغلت.. فوق ساقى المظروف.. الاسم الثلاثى.. العنوان رباعى.. غبش الوجع بالعينين.. وثقب يتسع.

تركت المرأة وجهها المتصلب برأسى ونهضت بعطرها الفواح.. استنشق العطر بعمق، أزفره بتعب.. وضعت يدى فوق المقعد الخالى مائلا بجسدى المنهمك فوق الذراع.. أزاح احدهم، يدى، نفخ المقعد وقعد فى مواجهة صديق له كان جالسا يكملان حديثا قد انقطع.

ـ تخيل.. حتى الآن لم يفرج الجمرك عن السيارات على مبلغ تافه.

ـ لا تشغل بالك.. لدى صاحب يعمل هناك.. ممكن، يسلك لنا الأمور.

صمت المجاور لى بغتة.. التفت لوجهى بتعمد، تطلعت إليه، وحولت نظرى إلى لافتة أسماء المحطات المثبتة فوق الباب.

مستغرب ومستدرك برأسى ذلك الشبه الغريب بين المجاور لى والمرأة العجوز. نفس الملامح والتصلب.

أفرغ الدهش فى عتمة النفق.. لم يصرف عنى بعض نظراته. لمحت صديقة المقابل فى المرآة يستفسر بعين متحفزة عما ضايقه.. لكن الصمت نسج خيوط التوتر. أغوص داخل نفسى. نظيف هو البدن، مغسول أمس بالماء والصابون لم تفح منى أية روائح تثير الغضب.. ربما مغبرا وجهى من أثر السفر.. أو عبق البشريين بالدرجة الثانية ما يزال عالقا بى. أو الشق بائن برأسى إلى حد اجتذاب النظر؟

لكن هذا نظر متقززا..

فليقتل الغيظ سيادتهما.. انتشلت علبة سجائرى، والمظروف يتأرجح ببطء فوق الساق.. أحس بعرق يتفصد فوق مسامى. أدركنى شعور بالعرى.. تعلقت

السيجارة بين شفتى. السجائر تزيد فجوة الدماغ لا مفر بعد من الانشغال عنهما كانت ملامحهما تتشابه رويدا..

انظر إلى الواقفين، رأيت نظرات مستنكرة لم يكلفوا أنفسهم نطق كلمة الرفض على تمردى، ويدى تخرج مشط الكبريت.. وقد شرعت فى وقد عود.. موقنا بأن التدخين هنا ممنوع.. تصلب الأصبع على العود.. متهدلة السيجارة بين الشفة والشارب. وبين رغبة انزاعها ومقاومة النظرات، ورمى العود وكبت احراجى، والسيجارة تتهاوى فوق المظروف، فاهتزت الساق قبل السقوط.. أشار رجل بآخر الممر بأن التدخين ممنوع. فأشرت إليه بأننى أعرف وأننى لم أدخن بعد.. ثم سقط العود واهتز المظروف واستقرت السيجارة بين حذاءى فانحنيت ممددا يدى لمحت بجانب النعل ذلك الخيط السميك المحيك به الحذاء تأفف المجاور لى اعترانى شعور بالارتباك ولما أردت الاعتدال، وعفوا هرس الحذاء السيجارة تقاربت الجدران الخلق ينحشر. كان المترو يهدئ من سرعته.. دخل محطة جديدة غادر المجاور وصديقه. ذهبا مع ركاب آخرين مسكت رأسى بقبضتى أضم الشق بين ركاب جدد بدأوا يصعدون.. رجال مخنثون، ونساء مسترجلات. مزركشو الثياب، هلعون يحلمون بفراغ المقاعد، على مضض وقفوا، يشاركوا الوقوف مشاعر التألق الزائف والقدرة على الوقوف، فالجالسون منهكون، يدق الصداع أم الرأس، أتوق لنفحة هواء نقى يأتى من الوسع والنهار.

أما زال الوقت طويلا لبلوغ حلوان، متى يصعد المترو على وجه الأرض؟

أيمكن أن يظل الظلام سئدا لآخر الخط؟

ليغفو الدماغ لبرهة، ليلتئم صداعى، تتفتت رغباتى.. شبكت ذراعى فوق المظروف وقلبى أغمض، الوجع متجسد على شكل رجال يتصارعون فتحت

عينى عندما قعد بجانبى رجل بدين ضغطنى إلى النافذة.. ذو لحية.. سيقان الرجل بيضاء، وسمينة ومشعرة يفضحهما قفطان أبيض شفاف نظرنى وهو يثنى ذراعه ليدخل جيبه فلكزنى بالكوع، وأنا أعالج اندهاشى.. يبدو أن كل البشر هنا متشابهون، ملامح متقاربة.. لم يعتذر، ولم أبال كل شيء أصبح مباحا وغير قابل للدهشة.. أخرج ديوان شعر. فتحة وهو يوجه غلافه نحوى متعمدا ثم أخرج أوراقا نقدية من بين الصفحات.. أودع النقود جيبه ولكزنى ثانية. اختلست إليه نظرة وهو يطالع الديوان بإنهماك مصطنع، تصيبنى عدوى القراءة لكن رأسى تدق فيه مطارق.. نظرت إلى ظلام خارج النافذة لمحت الملتحى يحدق فى بنفس الإنهماك. توجست مستغربا ولم أنظر. باغتنى قائلا - أكيد عندك صداع؟

رأسى مقبوض بين كفى - قلت.

- قليلا.

وضعت المظروف بينى والجدار أخرج هو بعض أقراص.. تخوفت كان يحاول الدخول إلى شق الرأس.. والمترو يغادر المحطة قال - ابتلع واحدة الآن فورا تصبح آخر جمال.

اعدت يده الممتدة شاكرا. فأعاد أقراصه، وطالع ديوانه بتجهم قال:

- هكذا قطار الفجر.. متعب.. و..

اندهشت قسماته توحى بكل المخاوف.. أهو كان معى؟ ركب معى؟ هذه اللحية مستعارة، واصل يقول:

- الإسكندرية جميلة. عشت فيها أروع أيامى كان لى دكان انتيكات عند باب عشرة شارع النصر. وكان لى أصدقاء فى حى الجمرك والورديان تصور

لا يوجد أجمل من شباب الورديان يضربون الأرض تخرج فلوس.. أأكون مراقبا؟ فرك لحيته. وأغلق ديوانه. غمزنى بأسئلة غريبة وتوقعت كلاما آخر عن كيفية نومى وضحوى. أنواع طعامى.. ألوان ثيابى.. عدد أخواتى وأولادهم، واصل غرس كلامه فى رأسى.

ـ كان عليك أن تركب قطار السادسة صباحا ـ مكيف.. وفارق الثمن بسيط.. كنت ستأتى إلينا مرتاحا، لكنك أردت توفير بعض النقود.. تتداخل تلافيفى، استبد هو بالدماغ المشطور، تتوقف أفكارى يقول:

ـ أجمل أيامى، تلك التى عشتها فى محرم بك.

جثم وخم على الجسد، انشغلت بالنظر إلى جدران المترو، كيفية فتح وإغلاق الأبواب آليا.

كان الوجوم والصمت ينطبق على الجميع لمجرد اقتراب المترو من المحطة. غادرنى الرجل بين انشطار الرأس وخواء الجوف.. والمترو يزحف فى الظلام، سؤالى عن استمرارية سير المترو هكذا فى الانفاق، حتى حلوان يؤكد الركاب الجدد جهلى بأمور المترو وأحوال القاهرة.

آثرت السكوت وإسناد الرأس على الجدار تاركا لبدنى حرية الأسترخاء أتطلع بعين تقاوم النعاس وضبابية أبدان ركاب مكدودين.. تتميل بذراعى.. يتهدلان.. شعور بالارتياح يغمرنى.

ـ الأخ نازل..؟

سؤال، ويد توقظنى، كان النهار يغمر الدنيا.. متى خرج المترو من النفق؟ حملت رأسى المشقوق فوق مفاصل صدئة.. ها هى حلوان النائية.. قتل التعب رغبات التسكع بجوار الحوانيت والباعة.. تأمل قصار البيوت ورؤية غسيل الشرفات المنشور.. وليس بالوقت متسع لشرب الشاى بأحد الأكشاك. توا

اتجهت نحو عسكرى المرور الواقف بمنتصف الميدان نفس الوجه للعسكرى الأول لايهم.

شرعت بالسؤال ورفع اليد.. المظروف، المظروف - التفت مذعورا.. عدوت حلوان ترتج برأسى.. عدوت. مترو يغادر ومترو يسكب ركابا.. أهرع أسأل، أرأيت مظروفًا أصفر عليه عنوان.. عدوت الميدان المكتظ بالخلق.. أسأل.. لعل أحدهم رآه معى. لعل أحدهم يبحث عنى لعل أحدهم رآنى مع.. لعل..

مجلة الثقافة الجديدة

انشودة القهر

إن خلص الفول.. أنا غير مسئول.

صوت مدو يغنى. أنطلق بين الصمت وركود ركاب ترام خط الورديان.. شق الأدمغة الشاردة واستقر.. فى لحظة الدهشة المباغتة ومشاعر النعاس.. باغتهم بقوة انطلاق العقيرة.. صاعدا من بين الأبدان المتكدسة فى تلاصق أليف.. يغنى بكل مشاعر الأسى الكامن، انطلق، وكأن قارورة سائل متفاعل ارتجت، وفارت وانتزع غطاؤها فانفجر بين الزحام.

يغنى باختلاج شجن غريب أثار الفضول.. لم تكن الدهشة لسماع الأسى المتفجر والصاعد من القلب، ولا لإنطلاق الصوت فى هذا الوقت من الصباح.. المدهش، والذى أناخ بعض الرؤوس ولوى الرقاب وأدار المناكب، ويوجهوا النظر والآذان تلك الكلمات المنغمة، الموزونة، والمزوقة بأنغام بالغة الوجد والصدق والحنان لحد إثارة مشاعر الوجع.. استحضرت الأمخاخ أشكال الأطباق، الأقراص والحبوب.. موال صعد من جوف أجوف، مدفونة فيه الصرخة منذ القدم.

وأفضل أقول.. وأعيد وأقول.

يا.. أ.. أ.. فول يا فول..

المحور الشاغل.. مطبوع بالأذهان.. يحشو تجاويف الدماغ.. مألوف.. رقيق الخلق المقهور.. هو الدائم والمتبقى والمنظور.. السيد والمسود.. الجائل والمتجول بالشوارع وأروقة المصالح ودهاليز البيوت.. الصامد أبدًا بأغلب الأجواف.

أرهفوا الأسماع.. هو كذلك الآن.. مؤكد.. ولكن أن يصرخ متغنيا به، فهذا هو العجب والغرابة إلى الحد الذى شد انتباه البشر واستحوذ على المشاعر فأخذتهم نوبة من الشرود والتوهان.. وكأن الصوت الصادر أمتلك عنهم قبلة التعب، فتتهد البعض بمخبوء القهر، فمالت الرؤوس شجنا.. وتطاولت رؤوس تنشد رؤية المغنى المقهور.. المتوارى بين الزحام.

كان الصوت يدنو رويدا، من منتصف العربة الأولى، بينما العيون تفتش بين الأبدان بحثا عنه.. أهو قصير القامة؟ قاعد هو..؟

(يا فول.. يا أ.. أ.. فول..).

ردد القول بعض الواقفين بالوراء.. كورس. وأيقن البعض أن الرجل، أكيد، معتوه،.. مخبول الدماغ.. ممزق الثياب، يتدلى لعابه فوق صدره . فكروا..

وأفضل أعيد.. وأعيد وأقول.

إن خلص الفول، أنا غير مسئول.

عقبت أصوات الاستحسان، وطلبت المزيد.

رددت النغمات أصوات أطفال المدارس المتكدسين فى العربة الثانية.. نفس النغم الأسيان المقرون بقهر طالع.

والدهشة تخبو فى العيون لتبدو على الوجوه انفراجات الأذهان الواجمة، وتوشك على الضحك.. باستحياء.. بدأت رؤوس السيدات الوقورات المحجبة تشرئب، فى محاولة لكبت المشاركة بتوق رؤية المغنى.. المنشد.. المقهور..

تعالت طبقات الصوت بمشاركة أصوات أطفال آخرين.. صبيان الورش، وتلاميذ المدارس، كان الصوت يدنو.. أفسح له الذين بالجوار.. والتصق به آخرون.. كانوا يودون الالتصاق به والامتزج ليعبر بأصواتهم المحبوسة.. يحثونه على المواصلة بالتوسل..

ـ الله .. الله ـ «والنبى قول كمان».

ـ من تانى.. الله.

كان رجلا مهندم الثياب.. مألوف الملامح.. كثيرا ما رأيت وجهه الوقور يشاركنا الركوب من محطة الورديان إلى محطة منيا البصل حيث يختفى.. ملفوف بصمت ودود.. يزين رأسه الأصلع بعض شعيرات بيض.

يا فول.. يا فول يا فول..

تتواصل أصوات الأطفال.. تتكاثر.. يرددون.

وأنا غير مسئول.

ضحك الشيوخ.. بدا فراغ الأفواه.. هزوا رؤوسهم فى تعجب.. تحدثوا بأصوات عالية عوضا عن صراخ الحسرة الكامن.

ـ مسكين.. أى والله مسكين.

ـ كلنا مساكين.. لكن هو عنده الشجاعة.

والأفندية المتأنقون، القاعدون باحترام مذهل، تمايلوا وطووا الجرائد.. والإخوة الملتحون، أغلقوا المصاحف، اقشعرت جلودهم والمشاعر فراحوا

يدندنون بما توارى فى القيعان، فقد تفاقمت مظاهر الصمت الوقور الزائف والشرود شديد التصنع الذى يوحى بغليان الصدور، كما لو كانوا يعدون أنفسهم لنوبة صراخ عارم، فانطلقت منهم الحناجر تردد. يا فول.. يا فول يا فول..

تمنيت لو أقول.. أطلق عقيرتى.

تهيبت من أولئك الذين افتعلوا السكوت والمهابة. خمنت.. لابد.. أنهم صم بكم.. كانت أعينهم تدور، وتتساءل.

تداخلت أصوات الطلبة.. ارتفعت بشكل منسق مع أصوات رجال شون القطن وعمال الشحن بالجمرك.. أصوات جهورية، غطت على أطفال المدارس..

يا فول.. يا فول.. وأنا غير مسئول..

يا فول .. يا فول - وأنا غير مسئول.

وصارت المسألة أكثر جدية، يصعب معها أى مزاح.. الكل يغنى.. يصرخ. يطلق الهموم المتراكمة المكبوتة.. ويغنى.. شرد المحصل برهة وترك دفتر التذاكر ورافق النغمات بهز قدميه وقرع حذائه فوق خشب أرض طاولته.. ثم انشغل بالتحصيل وهو يردد مع الإيقاع بصوت خافت.. لكنه استجمع قواه المشوبة بالخجل، ودخل بصوته مع ارتفاع الأصوات. رويدا.. رويدا.

يا فول يا فول - وأنا غير مسئول.

ورويدا.. بدأت الأصوات تتخافت..

كانوا يوشكون على البكاء.

همس رجل لآخر..

- مخبول..

- وهل وحده المخبول..؟

والموظفات.. الممرضات.. والحركة المحسوبة، والنظرات الثابتة.. اتسعت دوائر الأسى فوق الوجوه، حين شاهدن الجسد المجهد لرجل مهندم، اندمج فى الغناء، وقد تحشرج صوته.. وبدأ الحزن يطويه، رويدا.. تحت وطأة أصوات المجاميع.. ورويدا.. تلاشت أصوات الأطفال.. التلاميذ قد ذهبوا.. وصعد ركاب واصلوا الغناء..

وانا غير مسئول.. يا فول.. يا فول..

ينخفض الصوت.. يوهن.. يوهن..

أصوات تتعالى.. تتسابق.. تتبارى..

والصوت المنهك يوهن.. وبدنه المجهد يدنو من باب النزول المجاور لسائق الترام القاعد بهدوء وجمود.. رفع المغنى يده ومسح دمعتين انحدرتا على خده.. ترقرق الدمع فى بعض العيون.

اعتقد البعض أن الدمع من تأثير البرد.. أو الضحك.. وارى الرجل دمعة بكم سترته.. والأصوات تخبو، تعود إلى الصدور.. رويدا..

حين هبط فى محطة منيا البصل.. خفت حدة الغناء.. قال أحد الركاب بحماس وكأنه يكشف لأول مرة سر هذا المغنى..

- تصور.. هذا موظف محترم فى الحكومة.. و.. يتساقط الركاب فى المحطات.. يتناقصون ليحط صمت كئيب على الذين تبقوا.. كانوا يعالجون الصمت المباغت بصمت مصطنع وشاق..

حين شرعت فى النزول دهشت لصوت قائد الترام المتجمد القلب يدندن لنفسه.

يا فول.. وأنا غير مسئول.. وأنا غير مسئول.. يا فول....

احتضان

ترام الصباح المجهد المزحوم يؤرجح ركابه. مبلمون.. مدمنو التثاؤب.. ينشدون الدخول فى لحظات الصحو بالنظر خارج النوافذ.. يغمغمون.. يدمدمون ويسعلون والنهار القائم من نومه يتمطى بضجيج فرقعة الفولاذ فوق القضبان ليطرد عن رؤوسهم نعاسا مراوغا وعنيدًا.

داهم جدران الأدمغة صوت حاد لبائع يتجول بين الأبدان المتخشبة بالممر.

(عندى كتاب لتعليم الصغار بنصف جنيه).

يا تملص.. تواريه الجسوم.. (إتعلم، وعلم عيالك بنصف..) يلقى فى حجر كل قاعد كتابا وكراسة.. يندس.. آتيا، موزعا.. (اقرأ.. اعلم.. بنصف جنيه..) وبين صمت البائع المبتعد.. وعدوى التثاؤب.. والنظر لقرص ساعتى المغبش.. وسهوم البعض، وتوقع التأخير عن العمل، جار صوت من الوراء لرجل يتوسل.

(عايز كراسة.. هات لى كراسة).. محشرجًا كان الصوت.. ومحشورة

بالحلق غصة بكاء. تنبهت متقززًا.. والبعض يمتعض من المزاح السخيف الصادر عن رجل يقلد الصغار، كأنه يفعل ذلك ليفك تعاريج الكآبة عن الوجوه المصمتة. لكن أحدًا لم يضحك أو يلتفت.. فالرجل يواريه الزحام المتزايد.. اكتفوا بالسمع وتطرف الأعين والاستياء..

أعاد الرجل قوله المهدد بالتمرد والبكاء.

عايز كراسة.. لازم تشترى لى واحدة.. لازم.

كان البعض يزيح الخمود عن التلافيف ويعتليها.

رجل أهبل.. مؤكد.. رائق البال.. معدوم الشعور وعبيط. هات واحد يا بابا.

ومن همهمات الضجر المتفجر، أنسل صوت مهادن لرجل آخر نافد الصبر يقول..

طيب خلاص.. اسكت.. لما ننزل اشترى لك.

لا.. لا.. هات دالوقت..

كتم الرجل الآخر غيظه. قال من بين أضراسه..

قلت. لما ننزل اشترى لك.. وأسكت..

أنت تضحك على..

وبدأ صوته المنهنة يعلو رويدا ليثير الدهشة والنظر وخجل الآخر الذى قال وقد تفجر غيظه. وبعدين معك؟.. الناس بدأت تتفرج..!

وأنا مالى.. هات واحدة..

بغضب المتمرد، وثب بدنه وراح يتقافز فوق المقعد باكيا، ليتمكن الجمع المتزاحم من التطلع والرؤية والأسى.

نهض الآخر واضح الخجل والأسف راح يهدىء من الطفل المتواثب بصوت خفيض وقور.. صدقنى لما ننزل لازم نشترى لك واحدة.. وحلاوة.

وشعور بالسأم يعترينى.. أصديقان هما يدغدغان صدور الصمت والقتامة لركاب تحولوا إلى آذان تلتقط كلام الضجر الدائر بينهما.

الرجل الطفل بشارب متدلى الجوانب وذقن مسمارية الشعر. يلبس قميصا ملوثة ياقتة بعرق وغبار.

والآخر نصف ملتح، تغطى رأسه طاقية توارى بياض شعره وقاره الخجلان يعارك زمنه المنصرم المجهد.

اسمع الكلام.. لما ننزل.. غلبتنى كفاك.

والطفل يهز بدن الرفض الغاضب،،

انت تضحك على.. ضحكت على من قبل وأخذت رغيفى.

كان رغيفى.. أنت أكلت رغيفك. وأنا أكلت رغيفى..

أنت كذاب.. رغيفك كان أكبر.. هات لى كراسة ها.

.. أعين الدهشة تنظر.. تمعن النظر. وتمتعض.. بلحظة قدوم الآخر الوقور واقترابه من البشر، ساحبا بالوراء الطفل مشيرا بأصبع نحو إحدى النسوة العجائز القاعدات وراء ركن السائق.. (بص.. ماما أهى.. شايف.. أهى معها حاجات حلوة.. لك).

لكن وجه المرأة المندهشة تولى إلى جانب آخر بفزع.

وهو يتملص من أبدان الممر ويقترب بوقت قيام النسوة العجائز وهن يتبادلن النظر كأن كل واحدة تفكر بأن الأخرى هى أمه.. ثم أجفلن جميعا بمصمصات الشفاه بتعجب، فى حين اعتلت وجوه الرجال عبارات الغرابة والأسى.

الطفل يتطاول يتطلع يتلمس الطريق المزحوم، يحاول التقدم، يشرئب ليصل النظر - عبر الرؤوس - إلى النسوة المتطلعات بأعين الحزن المفتوح باختلاجات الجفون المتجعدة ورقرقة الدمع..

وهو يدنو بهدوء، وانسياب جسد أذعن لنظرات أم تدعوه بعين منداة بالدمع. تدعوه ليأتى..

وهو يدنو من كل العيون المحدقة التى حلقت جسده، وهو ينسل مبتسما بفرح للنسوة.. آخذا بعينه برأسه، كل الحدقات المنداة بالدمع ودفء الغرابة.. مسحوبا بيد صاحبه الواجم ليهبطا بالمحطة.

الرجل الطفل مول وجهه الصامت المتبلد شطر الباب الذى أغلق، والترام الذى غادرهما..

صديقى

رأيته واقفًا فوق الرصيف الآخر لمحطة باكوس، موجهًا وجهه نحو أشعة الشمس بنظارته الأنيقة السوداء.. ساكن البدن كالمنتظر القلق.. لوحت بيدى.. لم يرنى.. لوحت مرة أخرى رافعا ذراعى لنتبادل تحايانا كمألوف الحال. لم ينطق أو يحرك طرفًا.. لم يرنى..

رصيف قطار الضواحى النازح إلى المدينة مزدحم.

ورصيف قطاره الصاعد إلى مناطق الرمل أقل ازدحامًا.. رفعت ذراعى أعيد التلويح بقوة أرعشت بدنى لألفت أنظاره وكان قد ولى وجهه بجسده نحوى، رافعا ذراعه بآلية ليهرش رأسه. وتجاهلنى. اعترانى شعور باليأس الغاضب.. أهو صلاح صديقى..؟ يتجاهلنى..؟!

أرغمت نفسى على النظر بعيدًا.. لكن عينى تدوران هناك، وتعود لتحط عليه.. تجاهلنى فتجاهلته أنا الآخر.

ادرت وجهى إلى جهة اليمين حيث يأتى قطارى المنتظر.. وهو لم يزل برأسى.. نظرت إلى اليسار حيث يأتى قطاره المعاكس المنتظر.. ويراودنى. لم أذكر أننى فعلت شيئًا يمكن أن يغضبه ويفتر العلاقة الودية المتبادلة.. لوحت له، فقد تشبث بذهنى.. راجيًا - ببالى - الا يأتى أحد القطارين فيفصل فيما بيننا دون إثبات براءتى ومعرفة ما غير شعوره الطيب نحوى..

فكرت فى النزول من فوق الرصيف - فلأركض إليه. أواجه.. لم يتجاهلنى..؟ لكن خلع نظارته بثبات يد حذرة.. أخرج منديله بحركة آلية مفرطة فى الزهو السخيف.. مسح عرقًا من جبهته وبين عينيه المفتوحتين الواسعتين، اضحكانى كثيرًا بغمزهما المرح بأيام خالية.. أخفاهما بالنظارة ووقف ثابتًا..

أغتظت، ووثبت من فوق الرصيف قبل مجىء أحد القطارين.

صديقه أنا الذى أنحل بدنه القطار.

وصديقى هو الذى - كثيرًا - ما كنت ألمحه فأخترق أبدان الممر المزحوم - لو كان جالسًا - ارتمى فى أحضانه - ثم أصافحه - وأقبله، وأعيد احتضانه بشوق. أو يلمحنى هو مضغوطًا بين زحام الظهيرة المتكاثر.. يباغتنى ثم يضمنى إلى صدره بقوة نتوحد بها يوضع يده فوق كتفى - أقشعر بالمسرة - وكأنه يبارك رحلة الشقاء اليومية.. يغمرنى شعور حميم بالألفة حين يسألنى عن أحوالى أقول.. موش بطال .. وأسأله عن أحواله.. يتأسى بابتسام الراضى، ويحكى عن متاعب السكر.. وعن متاعب العمل اليومى، ومحاولات سكوته الجبرى وتصاممه وتعاميه عن أحداث تجرى حوله من زملاء الحجر الصحى بالجمرك.. عن فاقدى الضمائر والأخلاق رجال أمتلكوا العربات الملاكى، وكانوا يركضون - قبلاً - وراء القطار والترام بأحذية مثقوبة.. أقول ضاحكًا.

- كان بإمكانك ركوب عربة ملاكى مثلهم..

ينفعل بغضب نافر، مندهشًا برفض..

- أنا؟!.. أعوذ بالله.. هو الحلال نافع؟!

صعدت الرصيف المواجه.. تلمست طريقى - باتئاد - بين أبدان البشر والضجر.. وفى لحظة اقترابى من مكان وقوفه، هرولت فتاة صغيرة بجوارى، تجاوزتنى بشغف حامل المسئولية الأمين.. توجه إليها - هو - بحواسه، قال لها وهى تتأبط ذراعه..

قطعت التذاكر..؟

وكنت أدنو منه بخطوى الوئيد لألتصق به ممازحا.

- تذكرتين يابابا.

- القطار على وشك الوصول..؟

سأل هو.. والبنت قالت..

- إن شاء الله..

اقتربت أكثر والبنت تنظر لوجهى بابتسام ولم تنطق، فى لحظة استدارة رأسه بصمت وثبات كمن يتذكر أو يتذوق - بالشم - أنفاسى.. فالتصقت به ضحاكًا وقد أمسكت بيده وهو يقول بوده المألوف.

- من..؟

وقد صافحنى بفتور أوجعنى.. قلت. بحسرة مازحة.

- يا خسارة يا صاحبى.. يا خسارة.. ألم تعرفنى؟

تتبه وهو يشد على يدى بحرارة وقوة اسعدانى.. والبنت تشير بأصبع على أنه لايبصر.. صاح.

ـ أخى أبو حميد..؟

وأنا ارتمى فى حضنه.. وهو يطوق جسدى المرتعد بذراعيه.. يضمنى بقوة كمن يذيبنى فى داخله. ويقول..

ـ نمت ذات ليلة وعندما صحوت، وجدت نفسى هكذا، بكيت فوق كتفه.. غير عابئين بقطارينا اللذين رحلا دوننا.

خلسة

عندمـا توقف القطار بجـانب الرصـيف. تأهب ركـابه أمـام بابه المفـتـوح. وهممت أنا بوضع قدمى على الدرجة الوحيدة بلحظة تدافع ركابه المتسارعين للنزول، قابلتنى امرأة عجوز وكدنا نتصادم صعودًا وهبوطًا. فانتظرت نزولها. عندما تلامست يدانا، يمناها ويسراى، وهى تضع شيئًا بيدى - أدركت ما هو - دون أن تتقابل عويننا فهى لا تعرفنى وأنا لا أعرفها - ربما الثياب المترهلة وجلود الوجوه والمكان قد تشابهت - قبضت كفى المدلاة على ذلك الشىء الذى أدركه، وقد داخلنى شعور بالحرج، إذ كان راكبا خلفى مسنًا ينتظر صعودى.. توجست مشاعرى. قد يكون لمح يد المرأة وهى تضع الشىء بكفى. كفى التى حوت خجلى.

دخلت إلى الممر وجلست فجاء الرجل بقفطانه الرث وجلس إلى جوارى كالمنتظر أن أفتح كفى وأنظر لذلك الخفى بيدى المقفلة شبه المسترخاة على فخذى الأيسر، متجاهلاً ذلك الذى يختلس النظر بطرف عين مزدودة لوجهى

مرة ويدى الساكنة سكون الشلل على فخذى مرة أخرى.. كان المحصل يجىء مقرقمًا بصوته وقلمه وتحركه وسط الممر مقتحمًا بعض الأدمغة.. فاستقرتا عينا الرجل على يدى بتركيز جعلنى مضطرًا لفتح كفى - بدنو المحصل - ومنح الرجل التذكرة خفية.

قضبان الروح

هو العين والبصر.. عكاز النهار، ومؤنس الليل.. معلق بالتلافيف والأصابع.. وديعة دائمًا بيده..

مستسلمة باطمئنان جميل..

مبصر هو وصغير.. يهلو هناك بين أبدان البشر..

يذهب ويجيء.. يجوس الممر وسيقان الواقفين.. ركاب قطار الضواحي البطيء.. ينظر إليها.. إلى جوار الباب قاعدة صامتة ترهق السمع بقلق.. لابد للأطفال أن يمزحوا.. يتباعد صوته، يكاد يتلاشى مع الصخب المتوتر بجو القطار يلعب ويعود، على أطراف الأصابع. يدنو من الأذن. يغزو الدماغ، ينفذ إلى القلب لتنبسط أساريره.

يتنائى صوته. تدرك أنه هرول إلى العربة الأخرى حيث أصوات الأطفال المتجولين بالأمشاط وعلب الكبريت والبسكويت. أصدقاء العام الفائت. تعارفوا

حين كان مثلهم يسرح بأبر الخياطة قبل موت أبيه الأعمى.. قبل أن يكون عينا لأمه ومرشدها.

كان يحس ـ وأقرانه يتناثرون بالعربات البعيدة ـ بشعاع استشعارها السمعى الرهيف يسعى إليه، يحيط به.. يغمره فلا يتباعد.. ينفلت من بين تلاحم الركاب، ويتقارب.. ببطء الحذر. يدنو من البدن المقرفص بجانب الباب المفتوح. تتبسط قسمات الوجه المنصت باصغاء مرهق، إلى انتباه مصحوب بابتسامة حنو المأخوذة بتوقع حدوث زغدة مباغتة أو صرخة فى الأذن تنبه الدماغ بأنه واقف بالجوار فى ظل صمت مغزول بلحظة التلاقى الحنون.. تقول..

ـ أنت جيت يا حسن.

يقرفص قدامها.. تشعر بريح أنفاسه تتردى بانتشاء المدرك لفراسة أنف يشم رائحته.. يبتهج.. ويعدو..

يشدهما لبعضهما خيط مجهول.. يتجاذبان أطرافه مهما تباعدت بهما المسافات..

والركاب المجهدون الذين استحلب قواهم النهار المنصرم.. يتناقصون. بتجشؤهم القطار فى المحطات الفائتة.. ويشفط آخرين من فوق الأرصفة. يتصارعون. يتلاصقون.

ركاب آخر الخط. مألوفو الوجوه. حاملو القطار على الكواهل.. يلمحونها تقريبا فى كل يوم.. لكن لم يكونوا يعرفون من أية محطة تركب العمياء وطفلها المبصر، ولا فى أية محطة تنزل متواجدة هى مثل كل الموجودات التى تصادف أعينهم يوميا أثناء النهار، بالعربة الأولى، أو الثانية. أو العربات الأخرى. كأنهما لا يغادران القطار أبدا.. ثوبها القديم باهت السواد فضفاض فوق

جسدها المقرفص كمن يتأهب للوثب. سكون قسمات الوجه القانع الملفوف بطرحه بيضاء كالحة حتى الأصفرار.. موجهة الأذن نحو الداخل تتحسس قروشا يسقطها البعض فى حجرها. أذن كجهاز ارسال واستقبال يبث اشعاعا لايكل.. يتواتر.. يراوغ الصخب وينفذ حيث يتواجد اللاهى.. يكهربه حبل المودة المجهول. فينصت أحيانًا. فربما تدعوه، فيهرع إلى جوارها. تمسك رأسه المتلهف إلى اللعب.

- اقعد يا حسن.. كفاك لعب يا حسن.

طوى الولد شعور الضجر.. آن له وقت الجلوس القسرى والاجابات المبتورة.. تلقى أسئلة الرتابة.. تمد الأذن كوعاء يتوجب عليه ملؤه.

- طيب. قعدنا.

تمد أصبعين، وبغيظ اتسم بالعتاب. تقرص فخذه الرفيع.

- عيب يا حسن.

يتأوه شبه باك. تقول.

- النهار طويل قدامك.

- النهار قرب يروح يامه.

- هى الساعة كام دالوقت؟

- الشمس قربت من البحر.

- يعنى لسه بدرى؟ قل لى شايف ايه..؟

- اللى كل يوم بشوفه.

- شايف ايه يعنى؟

- حاجات عادية..

- يا واد اقعد.. نورنى..

- انورك بأية..؟

- كل ما تقول اتنور.. أعرف..

- ايه الفايدة؟ أنا أهو مفتح ولا أعرف حاجة.

- يا عفريت.

رويدا. ينسل الزهق من صوته.

- صلحوا المحطات. وبنوا أسوار حوالين القضبان.

- يا سلام.. والله كويس.. أسوار عالية يا حسن؟

- نص نص. ودهنوا القطارات. جددوها.

- والقطار اللى احنا فيه، غيروه..؟

- يتغير ازاى واحنا قاعدين جواه..؟

- أقصد دهنوه من بره.. جددوه..؟

- أهو.. زى ما هو..

- والبيوت اللى كانوا بيبنوها ورا الجدران؟

- البيوت كبرت خالص.. كبرت قوى يامه.

كان الاندهاش قد أزاح الضجر من الصوت فاستكان الجسد الصغير إلى الجوار يقول..

- هى الأطباق دى ليه يامه؟

- أطباق ايه..؟

- أطباق فوق السطوح. كبيرة ومدورة وفاضية.. ليه.

- هو أنا بشوف يا حسن. لو بشوف أحتاج لعيل عبيط زيك.

- وكلها متوجهة الناحية دى.

وقد أشار بذراعه نحو الوراء. قالت.

- ناحية ايه؟

- ناحية الملاحة كده.

- تقصد ناحية الغرب.

- أهى ناحية وخلاص.

- كلها يا حسن..؟

- كلها يامه..

- وفاضية؟

- خالص..

عاوده الضجر.. تململ.. فرصة هى «للزوغان» قال.

- أروح اسأل وآجى أقول لك.

- بتتريق علىّ يا حسن.. طيب تعالى.

امتدت يدها لتمسك به.. إلا أنه وثب قائما هازا وسطه، وهو يضحك.

- لو شاطره امسكينى.

فردت ذراعها تريد أمساكه. لكن ضربات يدها للهواء كانت عشوائية.

أحس بالضيق فاقترب لتمسكه. راوغها. ضحك وابتعد ثم اقترب. وتناءى.. أحست بأنه يبعد، رويدا.. قالت.

- بلاش تروح بعيد يا حسن..

كان رده يجئ من بعيد.

- متخافيش.. أنا هنا.. أهو..

يتباعد الصوت رويدا.. لزمت الصمت والانصات. لم تستطع الأمساك به يوما ليظل بالجوار. يحكى ما يراه وما تحب أن تسمعه أثناء الليل أو النهار، يتقلقل بدنه، يتحرك بدأب يتوق لمعاودة اللهو.. ومن النظر، تنتابه الدهشة، يستقر قائلا.

- ياه يامه الرصيف مليان طشوت.

تهدئ من دهشته التى لم ينجح فى نقلها إلى رأسها. تقول.

- دول الفلاحين يا حسن جايين من الأرياف بالتموين.

- التموين..؟

- الجبن والخضار بيبيعوه عندنا فى المدينة.

- آه.. عرفتى منين أنهم فلاحين؟

- من صوتهم وريحتهم يا عبيط.

حين تتكاثر أسئلته، يغزوها السكون. يدرك بأنها قد اكتفت، فوجهها انبسطت أساريره تهدلت شفتها السفلى وتثاقل رأسها وترنم لتبدأ الدخول فى نوبة غفوة..

ينسل هو بحذر. يسمع صوتها الكسول آت من عمق الغفوة.

- لاتبعد يا حسن.

- طيب.. طيب.

وغفت، كأن ليس بالدنيا ضجيج ولا بشر..

ذاب هناك يبحث عن أقرانه أطفال البيع الذين تلاشوا وسط الزحام فى لحظة الغفوة.

غفوة داهمت الدماغ فارتكن على ظهر الكرسى.. غفوة امتدت لعدة دقائق أو ثوان. أيقظها منها صوت ارتطام بجدار القلب فانقبض. صوت مبهم سرعان ما سكن، أعقبه صرخة واحدة، أسيانه ومفزعة، ومضت بالتلافيف المرتخية بالرأس المركون، فاعتدل متجمد الملامح مصلوبا فوق الرقبة منصتا.

خرج صوتها من خوف متوتر. وخافت.

- ولد يا حسن.

صوت لم يخرج مرة أو يتزحزح عن محيط مكانها، واهنا مخذولا، يشوبه الخجل القلق.

يمكن للمقربين من محيطها أن يسمعوه.. ركاب انتووا النزول فى المحطة القادمة فقد أوشك القطار على التوقف بجانب الرصيف. هم لم يسمعوه. ولو سمعوه لن يدركوه، فصخب النزول والصعود وقطارات الطوالى (بسيدى جابر) يتعالى ويأكل صوتها المدفون فى بئر التوتر. يمحوه.

حواسها فى الأذن تجمعت، تنصت وتقول.

- يا حسن.. يا حسن.. ياوله يا حسن.

فى مكان ما هو.. لم يصله صوتها المنخفض.

لو كان قريبا لبلغ الصوت أذنه وجاء مهرولا.. ولو كان بعيدا، لسمع الصوت بحواسه المغمورة باشعاعها الذى يتبعه، ولجاء فورا يحمله التذمر القلق. يحس يجئ يخترق مدركا أن القطار قد بلغ منتهى قضبانه، فيأخذ يدها فى كفه يتطامن القلب. تخضع الكف.. يرشدها إلى الطريق.

لكن نداءها الخفيض كان خجلانا.. يتحسس طريقه بذعر مطموس يسرى خلال العربة.. يتفرق على أعضاء الجسد الثابت.. عيناها متوقفتان باتجاه الممر بقوة تركيز سمعى.. قاومت صوت القطار الضارى الذى توقف، والبشر الضجر، وأصوات البشاعة الفظة الصادرة عن كل شئ. الباعة ونعيق قطارات الطوالى المستمرة فى حمل البشر والسفر.

لكن الصرخة لم تعد.. لم تتكرر.. انطلقت لبرهة عابرة بزمن الغفوة.. عابرة لحد لم يلحظها معها الكثيرون.. صرخة استبدت بالدماغ لتعرقل فيه الحركة. ألزمتها صمتا مباغتا وثقيلا.. أعادت النداء بصوت خرج عن الرأس..

- واد يا حسن.. حسن..

والصخب يتعالى.. يتفاقم.. صخب يومى لاينبئ عن وقوع شئ غير مألوف. الركاب الذين بدأوا يتحايلون على الصبر، ويتفوهون بكلام عن التأخر والمرتبات. الغلاء والزوجات. الزوغان واللصوص. معارك البعض مع المحصلين السادرين فى قطع التذاكر على الرغم من توقف القطار لعطل بالخط، لم يعرفوا بعد سببه.. ونداءها بدأ يملأ محيط مكانها.

- يا حسن.. يا حسن.. يا حسن..

ربما بعربة أخرى هو.. يلهو.. كثير العربات الخلفية.

- حسن.

يتوجب النهوض وتلمس الطريق لتبحث عنه. تحريك الجسد المحطوط بقوة الذعر.

رفعت الرأس نحو مصدر الأصوات المتشابكة بتكاثر عنيد مستعيدة بكل الحواس تلك الصرخة الوامضة التى اغتيلت كما اغتال الهمد الوحشى أعضاء البدن.. نهضت ممددة الذراعين. تتحسس أبدان الركاب وأعمدة الممر، وظهور الكراسى.

ارتاح القطار على القضبان.

يتوقف كثيرا هو منذ أحدثت الهيئة التجديدات بالأرصفة والأسوار والقضبان واشارات المرور.. يتوقف ويسير ويبطىء أن تعرف ذلك جيدا.. حسن يحكى لها كل شىء.

لكن التوقف الآن غريب هيأ النفس لقبول الارتياب.. سألت أحد الذين صادفوا اصطدام جسدها المهرول.

- هو حصل ايه يا خويا..؟..

- أنا عارف.. انزلى شوفى.. أهى عيشة تزهق.. سمعت صوت التذمر ينخر الرأس. نعم.. هناك أمر قد حدث ولم يهتم به أحد.. لأن أحدا هنا لايهمه غير سرعة وسلامة وصوله لمحطة نزوله.

انقباض القلب يدفع البدن على التقدم نحو العربة الثانية..

- ولد يا حسن..

رويدا يعلو صوت النداء..

فالعربة الثالثة.

- ما حدش شاف حسن..؟ يا حسن..

تجس أبدانا متاهية فى صمتها العجيب.

كالنائمين كانوا.. حسن لم يجب على النداءات.

والصوت يعلو صادرا عن القلب.

لم يسمع لتردد الصوت المشجوب على حبال الذعر الملتفة حول العنق.

- يا حسـ ااان...

مهرولة.. مرتكزة الرأس على أصوات اللغط الدائر بين الركاب فى محاولة لسماع شىء يهدئ من الروع..

- حسن.. يا بنى.. رد.. يا حسـ ااان..

نداء أشبه بالصراخ. العواء.. منطلق ليملأ كل الفراغات حتى تلك التى بالنفوس، بالرؤوس.

خيل إليها أن صوتها المنادى الأسيان سوف يشحن الجو كله.. يصعد لعنان السماء. يطغى على صوت الصخب والبشر.. فيبحث معها الجميع عن حسن.

.. أيكون ذهب لدورة المياه..؟

لكن حسن دوما يرسل بوله عبر الباب بجوارها..

أفعل وتبول عبر باب آخر..؟

أذهب لشراء ساندوتش؟

هو مفلس، وطعامه مخبوء دائما معها..

العم الذى ذهبا إليه فى العصافرة لم يعد يمنحهما مليما بائع الخضر والفواكه قطع عنهما المعونة الشهرية.

وها هما يتجولان بالقطار منذ مات زوجها الأعمى..

من قراءة القرآن فى المقابر، كان يعولهما.. ثم انقطع لمرضه، ومشاق المشوار من كشك الحبل إلى مقابر عامود السوارى.

القطار يقطع المسافة بين الإسكندرية والعصافرة - الجلوس على أرض الممر فى صمت الخجل، جعل المحصلين يتركونها وطفلها، لكن ذات يوم وجدت فى حجرها قروشا، ألقتها الأيدى المحسنة. قروشا أخذت نصفها أخت زوجها التى تقطن الكشك المجاور، فهى تنام وابنها وعليها أن تدفع ثمن الكشك والاقامة.

- حسـ١١١١ن.. يا بنى.

أمسك بذراعها أحد الركاب ليجتاز بها الممر الفاصل بين الباب والرصيف.. قالت..

- ما شفتش حسن يا خويا..

- حسن مين يا ست؟

- حسن ابنى.. كان هنا دالوقت..

هبط بها إلى الرصيف وهو يقول بلهوجة متعجلا..

- شكله ايه حسن ده يا ست..؟

- ولد.. عيل صغير..

- العيال كتير يا ست..

ـ ده كان معايا من شوية..

ـ لابس ايه حسن ابنك ده..؟

ـ لابس ايه..؟ لابس هدومه.. بيجامة.

ـ شكلها ايه البيجامة دى..؟

بالدهشة المريبة والغرابة، استخلصت ذراعها من يده.. لزمت الصمت.. لعل الرجل لم يلحظ عماها.. لكنه تطوع وأنزلها.. سألت..

بيجامة.. هو فيه عيال كتير لابسين بيجامات..؟

لم يجب.. أيقنت أنه انصرف لحاله.. تساءلت..

ـ هو الولد راح فين.. ياربى.. يا حسـ اااان.. يابنى.. كان هناك بالطرف القصى من الرصيف رجال يحدوهم الصمت والفزع، ينظرون لأسفل. مجبرون على السكوت. منظر أليم عرقل الألسنة ولملم أبدانهم ليكونوا صفا فوق جافة الرصيف. يقابلهم صف آخر بطرف الرصيف المقابل. صفان يفصل بينهما قضبان لامعة تتاثر على فلنكاتها قطع من لحم مهروس. ما يزال الدم الساخن ينبثق منه.. كانت العجلات قد هرست ومرت ليتساوى الحديد بالحديد.. مخلفا مؤخرته بعيدا عن أشلاء الجثة بحيث يتسنى لرجال الاسعاف جمعها. لم يفكر أحد من يكون الولد.. ولم يفكر أحد فى غير أطفاله القابعين - يقينا - بأحضان أمهاتهم.

ربما تساءلوا فى لحظة الهرس المباغتة، لحظة وقوع الحادث وانطلاق الصرخة.. لحظة لم تدركها المرأة الهائمة أشيحت وجوه النساء اللواتى سمعن ورأين نحو الجانب الآخر فى تقزز أرعد القلوب وأطبق عليهن صمت.

وضعن الأيدى على العيون والأفواه فى محاولة لمحو النظر.

- يا حسن.. يا واد يا حسـ ااان.

فوق الرصيف كانت، تتحسس الفراغ المخنوق بالقيظ الجاثم فوق النهار.. بلهف تصغى لعودة الصخب.. تهرول بعشوائية.

- يا حسن.. يا حسن.. حسن..

نداء تعالى فوق الصخب الآخذ فى الذوبان.

- يا حسـ ااان.

فيه الروع والرعب.. شعور ترسب بقاع القلب ينذر بفقد الولد. أفقدها التحكم فى انتظام الخطو المهرول.

اصطدمت بأبدان مهرولة. ولم تبال.. توقفت.. تصغى.

لعل صوتا يأتى من بعيد يطمئن القلب.

- حسن.

سادرون هم فى الهرولة والسعى.. تصغى.. لعل صوت اسعاف يشق الصمت الذى بدأ يتناسل رويدا. رويدا بعد رحيل القطارات، وخلو المحطة إلا من بعض الباعة والكناسين، وبعض ركاب لم يدركوا قطارهم ليسود الصمت من جديد..

- يا حسـ ااان.

نداء ردده الصمت المخبوء فى النفق الأرضى..

يرجع صداه صالات التذاكر المصمتة ودورة المياه.. ونهر القضبان حتى الجدران.

- يا حسن.. يا حسن..

صراخ.. صراخ اندهش له مفتشو الأبواب..

وهى تجوب الرصيف، بخطو وئيد.. لقد مر الوقت..

لعل الولد ركب قطار الطوالى. وسوف يعود..

لكن قطارهما كان يمشى حين فقد..

- يا حسـ ااان.. حسـ ااان.

نشرت بمجلة القصة ع ٨٩/١٩٩٧

صوت المطر والريح

ثبتوا كاميرات التليفزيون بأركان القاعة الكبرى.. وجهوا كشافات النور الباهر نحو المنصة.. انبعج الحضور المبهرجون.. شدوا الأبدان.. تأنقوا.. وضعوا أبناءهم المربربين فى مقدمة المناض، وراحوا يضحكون لتبدوا صفوف أسنانهم البيضاء براقة.

كان فتوح واقفا هناك عند مقدمة البوفية، تصغى أذناه بصوت دقات المطر فوق زجاج النوافذ المتباعدة بالجدران.. تتنبه حواسه لما سيعازيه عند مغادرة المكان والعودة إلى بيته النائى.. أهم يسمعون ذلك الصوت الذى يدق القلب؟

الآن سوف يبدأ الحفل الكبير..

توهجت فى الزوايا المكشوفة ألوان البللور الكريستال. فوق المناضد، والمقاعد، والأباجورات ذات الضوء الخافت المتوارى أسفل الكشافات.. انعكست الوجوه على البللور وأطباق الكريستال وزجاجات الخمر والمشروبات

المثلجة، فبدت بيضاوية، متورمة، وقبيحة. أسنان تضخمت لحد الشعور بالخوف.. سكت البعض وكف عن الضحك.. وأزاحوا - خفية - مراياهم المقعرة جانبا.. أزدادوا تخشبا.. ضبط الرجال أربطة العنق.. ساووا الشوارب.. عدلوا من شعر صغارهم المريربين الواقفين فى ثبات مبهر.. سابق التحضير.. وراحت النسوة يستخرجن يقارن بين وجوههن ووجوه الأخريات بأطراف العيون وانعكاس المرايا.

تأكدن من شعرهن والمكياج.. كل شىء جميلا لم يزل وثابتا على حاله.. جميلات كن فى عين فتوح الجرسون، ديدبان، مرابط إلى جوار البوفيه.. ينتظر، بقلق، لحظة البدء والإشارة من مدير الحفل ليخوض معركة الطحن بالأضراس.. ويمنى النفس بعودة غانمة، حلوة المذاق والرائحة، بقايا الحضور الموائد، غنيمة الإياب للأم والعيال.

ينتظرونك هم الآن. وعدتهم أنت بذلك؛ عندما رجعت من عملك الحكومى أمس نهارا. يعمل جرسونا - ليلا - بالحفلات الخاصة، تلك التى تقام بين الحين والآخر على شرف القوم المنبعجين بالمدينة.

ساوره ابتهاج شد قامته، سرا.. عدل ثيابه.. قفازه الأبيض. اختلس لساعته نظرة.. تأكد من ببيونه الأسود.. سترته البيضاء.. من يعرف. احتمال يظهر فى التليفزيون.. يشاهده البعض لكن لا يجب أن يراك أحد معارفك وأنت هكذا محنى الظهر.. تقدم الصوانى، بود، إلى الآخرين.. المتأنقين.. نعم.. هو عيد الطفولة كما يقولون.. لكنه ليس عيدك.. دا.

دار وسط الموائد والرؤوس، يوزع الكؤوس لتسليك الصدور قبيل الأكل.. وفى هدوء عملت الأضراس.. تشابكت الملاعق والصحون.. ثم..

وزعت جوائز مالية للأقوياء من الأطفال وجوائز عينية للأذكياء منهم.. وجوائز تقديرية للأكثر نباهة.

وبين الدورة والدورة. يغافل نفسه، ويختلس لساعته نظرة. ويصغى - بقلق خفى - لصوت زخات المطر المتساقط بالخارج البعيد.. مشغولا فى كيفية الرجوع من منطقة المعمورة إلى بيته المتطرف بشمال المدينة.. كيف تصحو غدا لتذهب لعملك الأساسى؟

عـزا القلق الذى بدأ يتنامى بمـلأ صندوق كـرتونى - أعـده لذلك - من حلويات ومشويات البوفيه.

تبارت البطون المتقدمة بعرض الأطفال المتنافسين.. كانوا يتقدمون نحو المنصة.

وضع كيانه كله داخل الصندوق، وأحكم إغلاقه بحبل غسيل، وقد أبعد عن ذهنه ذلك الحفل.. أعد أبتهاج مشاعره لمنظر عياله المبتهجين وهم ينقضون على الصندوق.. يقضمون.. يلتهمون.. ولا ضير لو التهموه هو أيضا.

كانت الريح ترتج فى خواء الليل.. تدفع أوراق الشجر فوق الأرصفة.. تتبعثر فوق القضبان والفلنكات، وتصفر فى أذنيه وراء صندوقه المحمول فوق كتفه.. وعلى الرغم من أرتجافات جسده النحيل. إلا أن الصندوق لم تصبه أرتجافه واحدة.

تحرك فوق الرصيف ذهابا وعودة ليسرى الدم بعروقه ويشعر بالدفء، انتظارا لقدوم القطار النازل إلى المدينة، ثم ليركب تراما لبيته.

أرهف السمع لرذاذ جديد بدأ ينقر سطح الصندوق بنزق. مطر خفيف كنقاط صنبور فتح بغتة.

أنزل الصندوق. توقف. مال قليلا إلى الأمام مداريا الصندوق بحيث يكون عند بطنه، وليتلقى بظهره رذاذ المطر. لو بلغ الماء قلب الصندوق، سيصبح كل شيء. حلوا، كريها. البيض، اللبن، والبندق، ورقائق الخبز، قطع الفراخ، وأصناف الفاكهة.. مقززا، أولى به صفائح القمامة.. وقمامة الشتاء تعافها القطط ولاتقربها الكلاب.

تنافست الصواعق.. أرعدت المساء، فاشتد المطر.. وكان منحنيا.. يحمى بجسده الصندوق.. وأستطاع أن يميز صوت زخات المطر، وهو ينقر سطح قطار قادم.. يتسحب.. ثعبان ماكر.. راح يغافل الليل.. يباغت الرصيف، ويبتلع ركابة خلسة. وما من سواه ينتظر. مقوس الظهر. إلى أن توقف القطار.. فأقبل إلى الداخل واعتدل.

ولأن العربة الواقف بها شبه خاوية، لايبدو سوى ظهور المقاعد فيها تحيرتى الجلوس بصندوقه.

وضع نفسه فوق أقرب مقعد، وبرفق، حط الصندوق إلى جواره، بدا كطفل واع، جلس إلى جوار أمه.

تحسس ماء ظهره.. مبلولا.. أقشعر بدنه ابتهاجا وبردا.. مسح رأسه بيد.. وجس جيب بنطلونه بيد.. ونظر أمامه وهو يستشعر رضا وقناعة لا يخلوان من توجس..

كان المحصل جالسا بآخر كرسى فى العربة، وراء كابينة القائد.. يتحرك بإنتعاش مريب.. ببطء وسرعة ويدخن. كأنه يستجلب الدفء.. وحين أطمأن فتوح، اختلس نفسه، ودخل الصندوق.

جاور قطعة الجاتوه السليمة، المريعة، هذه لأم العيال.. تبسم.. أستنشق روائح تملأ القلب المجهد. أغتبط.

تناهى لسمعه صوت أنين آت من مكان قريب.. لكن الصوت تلاشى بنقر المطر فوق جدار العربة المتحركة، ليمكس ريحا هائجا.. أبواب ونوافذ بلا زجاج.. وتيارات من ريح وماء.

فرك يده. تثائب ببطء. جس بنطلونه..

لمح المحصل وهو ينهض، تكاسلا.. هرس عقب سيجارته بحذاء ضخم ومغبر. أيقن فتوح بأنه يقصده رأسا. فلم ير بالعربة سوى ظهور بعض الكراسى. وكأن المطر اللعين قد أسكن الدنيا فى البيوت.

أعد ثمن التذكرة بيد، وباليد الأخرى، تحسس ظهر الصندوق.. وانتظر دنو المحصل..

كان الرجل يتضخم كلما ازداد اقترابا. حتى إذا توقف أمامه بدا أكبر.. كغول أسود، يلامس برأسه سقف العربة.. لم يتوجس وهو يقدم إليه الثمن، ويأخذ التذكرة، بل توجس لنظرة الرجل المرشوقة بصندوقه. نظرة سأم لكل مألوف بقطار ظل فارغا ومنذ قيامه من محطة أبى قير. خمش قلبه قلق مبهم، فقد أعاد الرجل النظر إلى الصندوق.. وهو يوليه ظهره العريض.. ماذا يريد من صندوقى؟

وبتلقائية، نحى يده من فوق الصندوق.. نفخ فيها.. وتطلع لظهر المحصل المتجه نحو مقعده بآخر العربة.

أطمأن القلب منه، وتوارى فى الصندوق.. إلى جوار أصابع الموز الكبيرة مكث.. صغيرته تحب الموز.. الموز غالى بالأسواق.. سوف يوقظ البنت لو نامت.. البرتقال يقطع أجزاء ويوزع على العيال بالتساوى، مع الحلويات، وليدع قطع الفراخ لتطبخ به الأم.

دق رأسه صوت الأنين. فانسل.. أنسل..

ارتعشت قدماه. هزهما.. فرك يديه.. تناهى صوت الأنين عند رأسه وصوت المطر النازل يهدر رويدا ويتباطأ القطار يلتقط أثنين أو ثلاثة ركاب من أرصفه المحطات.. ينكمشون قعودا.. يداهمهم المحصل.. ويعاود الاقتراب من مقعده. ويرشق الصندوق بعين السأم.. ونظر لفتوح.. وحط يديه فى جيب بنطلونه واستدار متوجها نحو مقعده البعيد..

ساور فتوح خوف دفين.. حمل الصندوق ووضعه فوق ساقيه، وشغل نفسه بالإنصات لذلك الأنين. الذى يعلو كلما خفت صوت المطر.. نظر إلى الخارج من خلال كسر النوافذ. أضواء نائية تتحرك ببطء عكس الأتجاه.. القطار يوشك على التوقف.. تأفف.. هنا نصف المسافة.

احتضن الصندوق بذراعين حانيتين. وجفناه الثقيلان يناضلان رغبة النوم. المحصل فوق مقعده، أشعل سيجارة.. وأنزل يده.. وضعها فى جيبه أو بين ركبه، وقد أرخى نصفه السفلى غير الظاهر، فاردا ظهره المشدود. يهمس لنفسه، أو لشخص آخر يقبع أسفل المقعد، أو المقعد المقابل ببعض عبارات غامضة.

بالتأكيد يسلى نفسه، أو يراجع جدوله بصوت خفيض.. لكنه أعتدل فوق الكرسى.. ثم تدلى.. وشد بدنه.. وتراخى.. مخفيا لكلتا يديه أسفل منه، تاركا السيجارة معلقة بفمه.. يصعد دخانها نحو عينيه.

أهو يحدث نفسه؟ يناجى الجدول.. المقعد الفارغ؟ يتحرك هكذا ليجلب الدفء؟ يسوس الوقت الثقيل تحت وطأة الريح والمطر؟ ذلك الذى تثاقل ليصبح ثلجا يدق سطح القطار والقلب المتوتر؟

راح فتوح يلمس أطراف الصندوق.. يهز ساقيه.. يجس جيبه.. يدعك عينيه ورأسه المتثاقل.

وصوت الأنين يزداد تواصلا.. أنين لم يستطع تحديد مصدره.. كأنه يسرى بأرجاء الجو..

أدار رأسه، والتفت عبر ممر المدخل الفاصل بين العربتين.. لا شىء يبدو سوى ظهور المقاعد.. بعض رؤوس تقاوم البرد لركاب منهكين.. تفرقوا.. وتكوروا مرتعشين.

والأنين يواصل غزو الرأس.. يثقب القلب.. يصر على تحريك الشفقة.

آه ه ه.. أم م م م .. آه ه ه.. آه... يانى.. نى.. نى.

فكرنى النهوض.. لكن.. ألزم نفسه مكانه والصندوق.. لم تعد بالنفس قدرة على التحمل.

الصوت يحشو الدماغ.. على البعض أن يفعل.. المجاورون له.. ينبغى أن يقوموا.. ويواسونه..

لكن وطأ الأنين يفتح القلب لدخول الأسى.. مزيدا من الاجهاد..

نهض من جوار صندوقه.. أندفع صوب العربة الثانية.. الأنين يقترب. يتباعد.. ويعلو ويعلو ويهبط.. وتفرق.. كانت العربة ممتلئة ـ تقريبا ـ بأبدان الأطفال المنكمشين كالقنافذ.. فوق كل مقعد طفل صغير تتداخل عظامه.. متسخون وحفاة ونصف عرايا.

أطفال النهارات الصيفية الملقون بلاناس فوق أرصفة الشوارع، يقتاتون من أكوام الزبالة وفتات زائرى الحدائق.. متسولو المدينة الواسعة يتلاقون فى ليالى الشتاء فوق مقاعد القطارات، يرتعشون..

كان أحدهم يئن ينكمش.. يتلوى.. ملقى فوق مقعد..

برفق.. زغده فتوح.

- ولد.. مالك؟

رفع الولد عينيه الباكيتين، وانكمش أكثر، ولم يرد.. هزه فتوح..

- مالك:

كف عن الأنين، وتلوى.. اصكت أسنانه وهو يقول..

- لا شيء.. مغص.. آه..

- وإلى أين أنت ذاهب؟

أنَّ الولد.. قال فتوح.. بألم..

- قل لى أنا لست شرطيا.. قل..

- بطنى توجعنى.. أى. آه يا فى..

- أين أنت ذاهب؟

- لبيتنا..

- وأين هو.

- بعيد. . هناك..

- بعيد أين.

- آخر رصيف..

وتململ بعض الأطفال النيام.. فتحوا عيونهم الكابية ونظروا تقلبوا، وانكمشوا.. شدوا أطراف الجلاليب والقمصان الواسعة، كأنهم يشدون الأغطية فوق الأبدان، والولد يقول..

- عندما يصل القطار. سأنزل. أذهب لبيتنا.

وتحرك القطار.. بطيئا.

هز فتوح رأسه.. شرع فى العودة إلى جوار صندوقه، موقنا بأن الولد لن يذهب لأى مكان، وأن وجع بطنه سيزداد، ولا فائدة، بعد من إعادة سؤاله. فالأنين ارتفع بشكل محتج. موجع القلب.

حين أستدار ليعبر الممر إلى مقعده، شاهد أطفالا آخرين قد تجمعوا.

انحنوا فوق مقعدة والمقعد المقابل ملتفين حول الصندوق.. يتدافعون بنضال شرس.. يتخاطفون ويلتهمون محتويات الصندوق.. بشراهة ونهم متوحش.. تصدر عنهم أصوات الجئير الملتذ وتكسير العظام، ناظرين بارتياب المتحفز نحو فتوح الذى مر، بجانب حذر.. أثر المرور بصمت المذعور نحو مقعد آخر بآخر العربة. ممرور القلب.

توقف المحصل، فجأة، وهو يمضغ شيئا وليعدل ثيابه، ويزرر فتحة بنطلونه، وليلكز بقدمه طفلا نهض من أسفل المقعد، مرعوبا، وانطلق متعثرا، نحو الأطفال.

كانوا يتشاجرون، وقد مزقوا الصندوق الكرتونى الفارغ.

وفتوح، ينظر، بكل الغضب والأزدراء لوجه المحصل المتحرك بثقة.. بصق فوق المقعد بقوة.. وتوقف إلى جوار الباب ليواجه الريح والمطر.

مجلة ادب ونقد

ظل باب

كان الباب يقى جسدها المتحرك من قيظ الشمس فى الميدان الفسيح المغمور بالبشر. استرعى انتباهى ثوبها الواسع المشجر بالورد الكبير فاقع اللون. يحيط رأسها والكتفين بالصدر خمار أصفر تدلى إلى الخصر. متصلب الرأس الساكن تحت الباب الخشبى. قديمًا كان ومكسور الزجاج.

تمد الخطى نحو محطة القطار.. طريقى..

توقفت واستدارت بالباب.. قالت بصوت ناهر:

ـ مد يا وله.. مد م الشمس..

لمحت طفلاً صغيرًا يسعى بالوراء، عرقان الجبين ممسكًا بكيس نايلون به بعض «المفصلات».

حين أصبح الولد فى منطقة ظل الباب عاودت السير إلى داخل سياج المحطة الكبير.

يقينًا قد ابتاعت الباب من سوق الجمعة الذى قام أسبوعيًا بناحية «مينا البصل» حين تباع وتشترى مخلفات البيوت القديمة.

عريض هو الباب ومستطيل. حال الزمن بين لونه الأصلى الأزرق، ولونه الحالى الكالح، كاشفًا عن خشبه الرخيص.

دفعنى شعور الأسى لأن أتقدمها فى السير.. لأكون قدامًا. بحيث أمنع مقدمة الباب من الاصطدام برءوس المارة النازحين من البوابة الكبيرة نحو الميدان.

- إمش ياوله.. إوعى توقع المفصلات.

لم تلحظ تقدمى قدام الباب، فظلت تتقدم بخطو مجهد حتى جاوزت فناء المحطة الداخلى وأصبحت فى مواجهة بوابات الأرصفة حيث تفاقم الرءوس وتكاثر أبدان الهلع المهرول. متقاطعوا الإتجاهات بأحمال القفف والحقائب يتصادمون.

توقفت بالباب. وعيناها نافذتان ضيقتان تموج بسياجهما الحدقتان، تبحثان فى شغف عن الطفل القريب.

- إوعى تتوه يا وله.. إوعى المفصلات.

نشرت ذراعى قدام الباب.. أحذر وأنبه. أبعد المهرولين نحو الأرصفة المتعددة، يبتغون بلوغ القطارات الموشكة على الطلوع. أو المتلهوجين ركضًا نحو شبابيك التذاكر المربكة.

أفرد الذراعين وحرج بالمشاركة ينتابنى، ألا أجرح مشاعرها بتقدمى المتعمد ورؤيتى لها وهى تحمل بابًا قديمًا مكسور الزجاج، أرهقته السنون واستعمال الآخرين. وهى تبغى ركوب القطار به.

لكن يبدو أنها لمحت تقدمى المتعمد وترصد خطوها بطرف عينى ونشر ذراعى لتحذير البشر، فقد تمهلت قليلاً.. نظرت للولد المجاور.. قالت بضجر منهك.

ـ إمش يا وله قدامى. يا واد قدامى..

تقدم الطفل ليكون قدامًا.

ـ يا وله إبعد شوية رح توقعنى.

احتوانى الخجل، تواريت بين البشر. تاركًا لها أمر نفسها. قلت فى نفسى.. هنا تنتهى مهمتك.. فهى تبغى قطار الطوالى، وأنت تبغى قطار الضواحى المتجة لباكوس.. لعنت تطفلى.. وتابعت خطوى نحو رصيف القطار.. أبتلع.. إحراجى بالدخول والمواراة بالانغمار وسط البشر.. رأيتها.. تتجه بالباب والولد شطر رصيف قطار الضواحى.

استوقفها محصل الباب الرصيفى. دار بينهما حديث أدى إلى نزول الباب بإلتواء الجذع أمامًا، وانحناء الرأس إلى أن استوى الباب واقفًا بمساعدة الذراعين، حيث أصبحت هى والطفل متواريين وراء الباب.

دق المحصل على الباب بضيق، فأزاحت الباب قليلاً لتبدو هى والولد لعينى المحصل الذى يتحدث برذاذ شدقيه. دفعنى الفضول فدنوت، توارينى أبدان الانفلات المتقابلة جيئة وذهابًا إلى جوار الباب الذى أخفى جزءًا من المحصل.

توقفت يفصلنى عنهما الباب.. غير معقول أن تكون حفظت ملامح وجهى أثناء تقدمى منذ حين. تستطيع فقط أن تتعرف على ظهرى فكل الظهور متشابهة. كانت تقول بصوت متوسل.

ـ صدقنى يا راجل. كل الفلوس اللى كانت معى اشتريت بها الباب. إزاى أدفع تذكرة طرد..؟ خذ تذكرة عادية.

- يا ست بلاش وجع قلب.. تذكرة البـاب.. دا باب.. موش بنى آدم.. الأخ معها؟

بوغت رأسى بسؤال المحصل لى.. غـادرت المكان من وراء البـاب، مدفوع البدن المخذول خجلا نحو القطار الموشك على التحرك. موقنًا أن المرأة قد أذعنت للمحصل وغادرت المحطة بالباب، فى حين يمتد رأس الطفل عبر النافذة لأنظر إلى الرصيف الملىء بالبشر، بإحساس يؤكد توقعًا قبع بذهنى بأن المرأة آتية بالباب والولد.

تغز الخطو بفرحة النصر والانفلات والتقدم صوب القطار. تحمل الباب. موضوعًا فوق الرأس كما كان والولد بالجوار.

- مد يا وله.. القطار حيقوم.

كدت أمد لها يدى.. كأننى مسئول عن بابها المرهق. وعنها.. إلا أن التطفل فى أعين الركاب منعنى. ربما تعتقد أننى أتعقبها. فآثرت الانزواء ريثما تصعد بالباب، والولد.

أسرع واحد وتناول منها الباب. انحنت هى بالخارج. فانزلق البـاب قليلاً بمعرفة دحرجة الرأس ودفع اليدين ليستقر أخيرًا بجوار ظهر أحد المقاعد المتاخم للباب القطارى المفتوح.

كنت بالممر واقفًا يوارينى بابها، ورأيت من خلال الزجاج المكسور جسدها يتراخى ويتكوم إلى جوار الولد.. جففت عرق الرقبة والطفل يقول.

- كده الهوا مش راح يخش تانى عندنا.

ونرتاح من عيون الجيران...

- ونقفلوه بالقفل..؟

قالت بذعر يزول رويدًا.

ـ يا باى عليه راجل.. كان ناقص نبوس إيده..

غمرها اطمئنان، لاح على الوجه، وتربيعة الفخذين وراء الباب.. أحسست بنفس الطمأنينة، فضحكت.. لكن اغتال ضحكتى صوت قلم محصل القطار يدق ظهور الصمت فأعددت له ظهرى..

سوف يطالب المرأة بتذكرة للباب.. توجست.. تحفزت للدفاع.

هى نقدت محصل بوابة الرصيف تذكرة واستطاعت المرور بالباب.. لكن توخيت الحذر والصمت.

دق الرجل الباب بقعر القلم. قال الولد بتلقائية عفوية.

ـ مين اللى بيخبط..؟

إعتدل الجسد المنساب ارتياحًا.. نهضت تنظر بوجل عبر زجالج النافذة المكسور لوجه المحصل.

ـ الباب ده بتاعك..؟

قالت بابتسامة تضمر توقع الأذى:

أنا ساكنة فى عزبة فى المندرة.. البيوت هناك من غير أبواب.. يخليك.

ـ وأنا مالى.. أنا لى تذكرة.. تذكرة.

ـ أنا قطعت تذكرة.

أخرج دفتر تذاكر الطرود.. قال:

ـ والباب..؟ بلاش..؟!

ـ يخليك يا خويا.. معلهش..

ـ يعنى إيه.؟

ـ فلوسى خلصت..

والباب.. تذكرة للباب.. إزاى جيتى من الباب من غير تذكرة؟

ـ المفتش الأولانى طلع ابن حلال وسابنا.

إغتاظ المحصل وسخر يقول:

ـ والمحصل التانى ابن حرام.. تذكرة.

ـ خليك إنت كمان ابن حلال.

ضجر يقول:

يبقى الباب متهرب من فوق السور لأن محصل البوابة لا يمكن يسمح بمروره كده ببلاش.

ـ والنبى سمح وخلاص.. إنت سماح.. يخليك يا خويا.

ـ تذكرة.. يا حنزلك سيدى جابر، نقطة البوليس تتصرف معاكى. وأحملك مسئولية تعطيل القطار.

ران الصمت على الركاب وهو يقول مزمجرًا.

ـ يعنى المحصل الأولانى ابن حلال.. والتانى ابن حرام؟! لما نشوف التالت بتاع بوابة سيدى جابر يطلع إيه.

فكرت فى إظهار نفسى الآن. فلأشهد بأنها كادت تقبل أقدام المحصل الأول. فقد سمح بالفعل بمرور الباب.. لكن الأمر سوف يتعقد لو قلت شيئًا.

لزمت الصمت.. وبعض الركاب المجاورين يقولون:

- خلاص بقى يا ريس.. الولية غلبانة.

- والنبى أغلب من الغلب.. وده ابنى.

استند أحدهم على البال وقال بصوت واثق:

- هو التمن كام..؟

- الباب ولا التذكرة؟

- الباب طبعًا.. كام..؟

- إتنين جنيه ونص.

قال آخر.. والواثق يتوارى.

- خلاص. كل واحد يدفع اللى فيه النصيب ونسد المبلغ.

انكمشت المرأة وراء الباب.

قال المحصل وقد اختنق بالغيظ.

- يعنى إنتو أجدع منى..؟ لازم هى اللى تدفع علشان تعرف إن الأمور مش سايبة.

لكن الأيدى اندست برفق ملول إلى قيعان الجيوب.. أخرجت قروشًا.. فى حين تخاذل بدن المرأة إلى جوار الولد مختلجة الشفاه، مترقرقة الدمع، تولى ظهرها للباب والمحصل والقروش الذى امتنع عن أخذها.

قال المحصل.. والقطار يوشك أن يستريح على رصيف سيدى جابر:

ـ إتفضلى انزلى.. لما نشوف حتخرجى من البوابة دى بالباب إزاى..

تطوع بعض الركاب النازلين.. حملوا الباب إلى الرصيف.. تركوه واقفًا مسنودًا على ذراعيها.. وتفرقوا مهرولين.. نحو باب الخروج الوحيد الرابض به محصل قاتم الملامح.. والقطار يتحرك. يغادر الرصيف ببطء تدريجى.. يتباعد الرصيف.. يخلو من البشر.. ليبدو مقفرًا.. إلا من باب مصلوب بالمنتصف يوارى امرأة وطفلا بعيدين.

الوليمة..

من بين المندفعين صعوداً، والمندفعين هبوطا ركبوا قطار الضواحى، كطابور صغير متدافع.. الأم وخلفها الصبى. حامل العلبة، والأخوان، الطفلة والطفل.. استقروا على المقعد المجاور متجاورين. الأم إلى جانب النافذة، والصبى. حامل العلبة. بطرف المقعد..

من فم مدهون بالأحمر الخفيف، تنفست الأم الضيق المكتوم. ولمحت الصبى، والعلبة التى انطبعت برأسها المتطامن على اعتدال زواياها الاربع وانضباطها بين راحتى الصبى وذراعيه، ووضعها المتوازن على الساقين، فأصلحت من اعوجاج بلوزتها الصفراء المكرمشة، والمشبوكة عند الصدر بدبوس بدلاً من زر مفقود.. ثم رفعت اصابع أفرى اظافرها غسيل سابق، عدلت من إيشارب منحولة اطرافه، فوق رأسها المتدلية شعيراته المصبوغة بالحناء، أعلى الجبين القمحى المجعد..

همست بصوت واهن لطفلتها الملتصق ظهرها بسياج النافذة..

أوعى تنس زى ما فهمتك.. تقولى لجدتك، كل سنة وانتى طيبة ياستو..

أومات الطفلة برأس كان يتابع وجهه المنمنم شكل العلبة المبسوطة على حجر الصبى، بوقت ملاحظة عينى الأم المكحولتين بالأسود غير المنسق لبدن الصبى الثابت تركيزاً بوضع العلبة. همست له... أوعى تقع منك..

على الساقين، وبين الذراعين، والأصابع، والنظر. كرتونية التكوين مربعة. مرزركشة بألوان مبهجة ومربوطة بشريط ذهبى جميل.. ممسوكة بلمس الأصابع وانتباه الذهن، ورفق الروح. كمن يحمل آنية مملوءة بالماء الطافح الذى يخشى رجرجته وانسكابه من الحواف.

كان بدنه يهتز ثباته مع اهتزازات القطار، محاذراً أن تهتز العلبة، فيلجأ لرفع اليدين مع الذراعين قليلا عن مستوى الفخذين. موازيا بانضباط نفس اضطره أن يجز على انيابه، ضاغطاً على شفتيه شبه الجافتين، متطلعاً فيما حوله بنظر كسول زائغ، تجوس بين الوقوف الذين كانوا يتحركون بحرية أبدانهم دون قيود، هابطاً بنظره. حين يشعر بالشرود إلى مسطح العلبة، مأخوذ القلب خشية ألا يكون أحد زواياها قد انحرف قليلا لحظة شرود ذهنه..

كان الطفل الصغير الواقف بين ساقى أمه يراقب العلبة بعينين ذابلتين، آخذاً برأسه شكل العلبة، متخيلاً مايمكن أن يكون بداخلها من حلوى، وقد انغرس أصبعه الصغير فى فمه بشكل شارد السمات وصامت يبتلع ريقاً كان يغوص فى العلبة.. خفية، سحب أصبعه من داخل فمه، ومده عبر فجوة الفراغ بينه وبين الصبى والعلبة، ولامس الزاوية الكرتونية الناعمة التى تشبه السور الدائرى، محاذراً من عينى أمه التى كانت تحول نظرها إلى الطفلة المركون ظهرها بإستكانة على النافذة حيث تترى - راكضة - من خلفها البيوت. والقضبان. والأعمدة. والشجر..

أدنت الطفلة فمها من أذن أمها الذى تقارب..

- مـامـا .. هى سـتـو راح تاكل من العلبـة الليلة .. يعنى ممكن تفـتـحـهـا النهاردة ..؟

تجهمت ملامح الأم .. أومات تقول بنهر خافت.

- عـيب .. اسكتى .. هدية ناخـذها منهـا .؟ عـيب .. كـان الطفل الـواقف بين الساقين يصغى .. قال ..

- ممكن بابا يشترى لنا علبة زيها ..؟

- لما يكون مع بابا فلوس رح يجيب لنا واحدة ... قـال الصبى حامل العلبة. بثبات بدنه ..

- هى التورتة دى شكلها أيه ياماما .؟

قالت الأم بهاجس أسى مس القلب ..

- تورتة عادية خالص ..

كان بطن الصبى مشفوطاً، مع تقويسـة ظهر بحيث يكون الصدر والرأس كالظل الواقى فوق العلبة .. اقترب رأس الطفلة من رأس الأم وقالت ..

- حنروح كل يوم عند ستو ياماما .. ومعانا تورتة ..؟ ويد الطفل المحاصر بساقى أمه تتسرب، يد مخذولة الأصابع، تجس الهيكل الكارتونى الناعم بمودة قلب تائق، يتمنى النفاذ من السور الورقى المصقول، بوقت دنو الأم المتنهدة من أذن الطفلة، تقول باستغراب متحسر ..

ياه ه.!. كل يوم.؟

محركة فمها الذى اضنم على الحسرة يمينا وشمالا ..

- كل يوم.!!.. قولى كل سنة .. معقول .. كل عيد .. قال الطفل ونظره على العلبة ..

- ممكن بابا يجيب لنا واحدة السنة الجاية ..؟

كانت تلمح يده الصغيرة تتلمس الجدار الأملس.

ضربت يده بخفة وقالت..

- بس ياوله.. عيب...

وصوت المحصل الآتى ينشر على المكان صمت مداهم.. يوقف الحركة.. يقترب. ضخما. يعرف كيف يدق رؤوس الصمت المفتعل، والغفلة.. كان يخبط بقلمه الجاف على الأعصاب المتساهمة. فارتجفت ادمغة، وتباعدت مصابة بالإفاقة.. بغتة، تقدم خصر الصبى قليلا وهو يدس يده اليمنى فى جيب بنطلونه الجينز القديم، وليشب - بحذر - نصف بدنه الأعلى - قليلا - مع تمدد بسيط لنصفه السفلى بحيث يتسنى له أن يستل جنيها كان مزنوقا وحده بالجيب الضيق. حركة مباغتة كانت، ومتوائمة مع قدوم المحصل.. حركة أمالت الجانب الأيسر من العلبة، جانب السيقان الواقفة بالممر.. حركة توافقت مع امتداد ذراعه بالجنيه، ولحظة تناوله للتذاكر تحت ارتجافه ذعر مباغت طبع وجه الأم وهى تمد يدها بهلع لتسند زاوية العلبة، فى لحظة فورية متسارعة اطاحت - أثناء مرورها - برأس الطفل الذى انزاح فزعاً متطلعا لأمه التى تطاول ذراعها - رغم ذلك - نحو العلبة التى انزلقت من فوق ساق الصبى، لتتهاوى مصطدمة ببعض السيقان.. تتهاوى على جانب.. مع ارتجاجات.. اهتزازات.. انحناءات.. أعين صغيرة، وأذرع. ورعب مذعور مباغت أشاع فيهم شيئا من هرج أسيان.. أسى تبلور بلحظة ليحط عليهم صمت وحشى.. صمت ثقيل تعذر معه النطق بأى حرف..

نهض الصبى وانحنى.. رفع العلبة برفق وروية كمن يرفع عن الأرض عيناً من عيونه. بوقت مد يد الأم وتناولها منه بحرص حزين.. حرص الخائف المتوقع هرس واختلاط ما بداخلها.. أحشاؤها.. موت جنين وفرت له كل أسباب البقاء حياً. اقتطعت له من الأيام نقوداً.

حملتها بدمع تحجر بالمآقى. دمعات كان لابد لها أن تطفر، ليلحظها العيال الذين تجهموا باكين بصمت.. إلتوت السحنة بعبوس انتقلت عدواها للوجوه الصغيرة المحدقة.. مؤكد، اختلطت أحشاء العلبة.. صارت عجينة متعجنة ينفر منها المرء.

كيف يتسنى للمرء أن يزور أمه بقطعة من العجين؟ بتورتة متهتكة..؟. كيف تذهب لأمها - جدة العيال - بعلبة لم تعد تعلم بعد بما حدث لمحتواها؟ هى قطع من الزبدة والقشدة والخبز الطرى الهش.. قطع كانت مرصوصة جنباً إلى جنب.. هل تفتحها حين تنزل على الرصيف، وتنظر ماذا أصاب احشاءها.؟. عندئذ سيراها العيال ويحدث لريقهم ما يصعب معه مداراة مشاعر الوجع الأسيان.. بعد الهبوط.

جلست على المقعد الحجرى بالمحطة يحيطها العيال بصمت التطلع المنتظر. أن تفرغ عن الصمت بكلمة أو آهة. أو انين يزيل عنها الاختلاج، أو تحيد بنظرها المتحسر عن العلبة الموضوعة على مسطح المقعد بالجوار.. إلا أنها فكت شريط العلبة برفق حزين.. وفتحت غطاءها بحذر الخائف. والعيال ينظرون.. قطع ملونة تداخلت. تماوجت.. اختلطت، وشابها لون مزر كئيب.. والعيال ينظرون.. يتحسرون..

وهى تتسل عن صمتها.. زائحة عن نفسها هموم العالم. وتقول..

- كلوا - يا عيال... كلوا...

رؤوس تغوص.. وجوه تغوص..

وهى تنظر بابتسامة أسى تلوح على الوجه الصامت.

آلام البحر..

كان لابد أن يعود وبقدمه الشبشب..

أن يعود لبلده البعيد ولو زحفاً. وقبل غروب الشمس. بلده الذى تناءى الآن، وأصبح آخر بلاد العالم، عالم هذه المدينة الواسعة، الصاخبة، المغمورة بشمس حارقة، وقيظ متعامد، وناس غارقون فى عرق يتصاعد أبخرة وضجر مخنوق يتلقاه البحر المزحوم بكل أنواع البشر.

المقيم على الرمل، عراة، وحفاة وبلا أحذية أو شباشب..

كان لابد أن يعود بنفس اليوم، خفية، كما جاء خفية. يعود قبل انقشاع آخر ضوء من نهاره المشئوم. قبل انسحاب الشمس من فوق بيتهم الصغير البعيد.. قبل انكشاف أمره. اختفائه من البلد، وبدء تسرب القلق لقلب أمه وأبيه.

أن يعود ويقدمه الشبشب الزنوبة الذى استعاره من أمه صباحاً ليلعب به. لمجرد فترة لعبه فقط، وبجوار ساحة المسجد القريب، كعادته بصباحات الصيف والأجازة.. أخذه لأنه جديد. وسيلعب به مع أقرانه، على الرغم من كبر حجم الشبشب على قدمه الصغيرة.

وقتها، أوهم أمه بأنه باق هنا، بالجوار، عند ساحة المسجد، لاعباً، مثل كل يوم، مع أقرانه أبناء الجيران.. وليؤكد إيهامها أكثر، وليطامن من نفسها، شرب من الماء، أمامها، ما يكفيه طوال فترة اللعب، لتدرك أنه لن يتردد على البيت أثناء فترة اللعب ليشرب، وليزيد إيهامها، تعمد الخروج بالقفطان القديم القذر.. وجاء إلى الإسكندرية..

جاء مع صديقيه لينزلوا البحر..

شعر بالفرح وهو يتملص متخفياً، بين الطلاب، والفلاحات والفلاحين، حاملى طسوت الجبن والبيض، وأقفاص الدجاج والزحام داخل قطار الطوالى الآتى من القاهرة.

لذلك حين اصطدم كعب قدمه بحافة الكوبرى، تألم بندم، لركوبه القطار ولكذبه وهروبه. ولركوبه قطار الضواحى الآن. ذلك الذى تسبب فى ضرب قدمه.. قدمه التى رفعت بلحظة ذعر مباغته بألم الصدمة الأولى. لحظة انفلات الشبشب وخلعه من القدم، وتساقطه بالفراغ الخارجى. لحظة ظل مولياً وجهه المذعور نحو مكان السقوط. مستوعباً بداية رعب تملكه، تولاه، أثناء رفعه للقدم، طاوياً ساقه الضئيلة المحسور عنها طرف القفطان نحو صدره، ضاما القدم بين كفين بحنو أسيان. مثقل النظر بين مكان سقوط الشبشب المتباعد بزحف القطار، والتطلع المفزوع إلى القدم.

مع بداية الوجع المشتد. المحسوس بإلتياع جعله يجز على أضراسه، مكوماً كل الألم المريع فى تجهيمة وجهه الصغير المصفر، زائغ النظر بلحظة غيبوبة.. أفاق منها بومضة تنبه مذعورة بالنظر إلى القضبان والشبشب الملقى.. يتباعد.. فأطلق من القلب آهة. آهة مقهورة لذعر مستعطف لقدم أصابها سكون مباغت مفتقد الروح والحركة، بتحديقة ود متوسل أن يكف عنها الألم، بوقت استلقاء موهن وبطىء وحذر إلى الوراء وعلى الظهر.

لتلقاه أرض القطار المترية بجانب وقوف الممر. موسداً القدم بيدين حانيتين، وبمواجهة الفم كمن يبود تقبيلها، استسماحها، لتكف عن الألم. لامحاً بيوتاً وأعمدة، وأسواراً تتراكض بعكس القطار الذى يطوى قضبانه إلى الوراء، غير عابىء لشبشب جديد، وحيد، تساقط على الفلنكات.

كان لاستلقائه المتكوم، المتلوى، بصمته المشحون برغبات الصراخ، مفاقماً للخوف، وباعثاً على تفجر الآهات المكتومة بكيانه. بعمق الروح، جزاء على ما اقترفه فى حق نفسه، وحق أمه. عقابا لروحه. ورأسه الذى اتبع أفكاره ودفعه للمجىء إلى هنا لينزل البحر لمدة سويعات.

يتقلص بدنه.. يتلوى داخل قفطان تيلى قذر، مخطط بلون باهت، مازال طرفه السفلى مبتلاً بماء البحر. استدعى أعين الواقفين بالممر، وفسحة المربع الفاصلة بين البابين المفتوحين دوماً لعطل أبدى، لقطار الرمل العائد لمحطته الكبرى.. فوق قدم الصبى وهل منثور ومتلاصق يوحى بعودته من البحر تواً.

رجل أناخ رأسه، وجذعه، وتطلع بقشعريرة أسى..

ياولد حرّك اصابعك.. حرك مفاصلك.. عيال شياطين..

– فى حين تحرك رأس عرق لرجل متذمر..

– ألا يعرف أنه يوجد هنا رأس كوبرى؟!

بخوف المحاذر، أعدل الوجع ظهر الصبى المستلقى. مع رعبه من فكرة تحريك قدمه. موجهاً نظره إلى حيث سقط الشبشب، مزاولاً تحريك البدن – دون القدم – موحياً – لهم بأن القدم مازالت معه.. لكن.. الذى معه هو.. مع بداية نوبة بكاء انفجر مصحوباً بصوت الذعر.

– الشبشب – الشبشب.. الشبشب يامه..

باعث النظر المتحسر لقضبان تنطوى، وتغيب، قضبان تتلاحق فلنكاتها بسباق لا يستطيع المرء أن يثبت عليها النظر، أو يحصيها، أو يخمن على أى

استقر الشبشب.. يقينا سقط عند بداية بروز الكوبرى، فى بين كل القطارات القادمة والمغادرة.

كان يميل بوجه رأسه الحليق إلى الخارج، كمن ينوى القفز قبل توغل القطار فى متاهات قادمة وبعيدة، حيث يتباعد موقع الشبشب. تباعداً يصعب معه الانتظار.. باكياً.. مطلقاً أنيناً كالعديد الشاكى بالفقر والتصادم، واستحالة إعادة الشبشب، ولقدم تعسر وضعها على الأرض..

– الشبشب.. الشبشب ياماً. الشبشب.. يامه.. أمى ى ى ى..

قال رجل أضجره النواح، والنظر المفزع المتبادل بين القدم والقضبان..

– يابنى الشبشب ليس مهما.. المهم قدمك.. قدمك كان ممكن تقطع بحد الكوبرى.. ذلك الحد المألوف، المدرك لركاب خط الرمل لقطار الضواحى، ويحرصون منه عندما يقعدون على عتبات الأبواب المفتوحة، فيرفعون الأقدام مع السيقان عند اقتراب القطارات من خلاله، فهى بروز ارتفعت عن القضبان لتحاذى العتبات، وهى الدعامات الأساسية التى تحمل قوائم الكوبرى.. من بين احتشاد العيون والنظر، قال الرجل المتذمر..

– كان لابد أن تقعد، وتدلى قدمك؟!

شقاوة عيال..

– تعنى هو فقط الذى يقعد هكذا؟! الكبار أيضاً يقعدون مثله..

– لكن الكبار يعرفون الكوبرى..

– والصغار أيضاً يعرفونه..

– يا جماعة، الولد يظهر غريب عن إسكندرية..

كان هناك صبى آخر متوارياً وراء الزحام، تولته مشاعر التوجس والحذر، حين سمع قول الرجل الأخير تطامن قلبه – أحس بمؤازرة تباعد عنه شعوره بالذنب المؤنب ببعض مسئولية الحدث. قال كالمذل..

- نحن من طنطا، جئنا الصبح فقط لننزل البحر، ونعود فوراً.

قال رجل أغضبه منظر تورم القدم..

- نحن هنا بالإسكندرية، ولا نرى البحر.. تمر أعوام ولا نراه..

كان بكعب القدم المتورم خدش أحمر..

- ليتنا ماجئنا، ولا نزلنا البحر..

قال الزميل الثالث متشجعاً بأحاديث الأسى المشفق الدائر، مع تأوهات الصبى كمن يستعطف العيون والأفواه أن تعوضه عن إشفاقها بإعادة الشبشب.. الأبدان التى طوقته أحذيتها، وشباشبها المتداخلة.. أبدان ضخت بعض السلوى بروحه.. مدركاً - رغم ذلك - بأنه سيبقى وحيداً بآخر الأمر. بعد أن ينفضوا ويذهب جمعهم المواسى..

لو يواسونه حقاً، ويأتون إليه بالشبشب..

هناك.. بأعلى. فوقه.

يدار لغط، وثرثرة، أصوات، كمن يقتلون الوقت المنتظر لوصول القطار لآخر محطاته.. تطرقوا لمسائل شئون الدنيا..

العيال.. والتربية.. والأجور. والزمن.. و..

- على فكرة.. أكيد المفاصل مكسورة من الداخل..

متأرجح النظر.. أوقفت الثرثرة انسيال الدمع..

- حرك أصابعك ياولد..

كيف يكون التحريك، والنظر تراوغه الفلنكات.

الأحذية، وشباشب مزحومة. وقدمه المرفوعة، يتوسدها نظره المتوسل، أن تكف عن الوجع المتكاثر. والتورم. قدم تمنى قطعها، وبقاء الشبشب، تلك التى دخلت صباحاً، وتجاسرت وأخذت شبشب أمه..

- طيب ممكن أحركها فى البلد.. لكن الشبشب..

متخيلاً شكل أمه حين تراه يتواثب بقدم واحدة، أو محمولاً، أو مسنوداً على أحد. وغالباً سيكون لوحده. فصديقاه لابد تاركانه ليواجه مسئولية ذهابه - خفية - إلى البحر وحده. وقدومه حافياً بلا شبشب.. شبشب أمه الجديد الذى ابتاعه لها أبوه من سوق الخميس.. ورآهما ليلتها يضحكان بتودد أكثر مما سبق، وشعر بالمسرة، ورأى أمه تقبل أباه وتدعو له بدوام الصحة وطول العمر والرزق الوفير.. كان يزين قدمها حين تلبسه وتذهب بالغداء إلى الحقل.. نعم. كانا يضحكان.. يضحكان.. والمسرة تغمره..

كان يجب أن يدع الشبشب هناك..

ويبقى هناك، بجانب البيت، هنااااك.

ليته اكتفى بالمجىء إلى البحر بلا شبشب.. أغلب الذين رآهم هنا على الشاطىء، عراة، حفاة، يتمشون بلا شباشب.. كل أطفال البحر حفاة.. تتسحب بعض الأحذية القريبة منه والشباشب.

توليه الكعوب وتمضى بخفة، وهرولة. تتوارى رويداً. مع آخر كلمات تقصفت معانيها عند أذنه. عيون لفظته بالمغادرة..

ليشتد بالدماغ الألم. وتتداخل القضبان بتموج الدمع..

لو فقد الشبشب فى محيط البيت لا ستطاع العثور عليه.. لكن هنا، فى ذلك التيه الراكض فيه قطار أرعن يغور بين المساكن والمزلقانات، يدخل أسفل كبارى، ويصعد أعلى كبارى، فوق خطوط تتداخل، تتقاطع، تتكاثر. طاوية فلنكات تحمل قطارات أخرى، تعدو ذاهبة، أو عائدة.. وسط فراغ محفوف بالدمع.

كان بإمكانه العودة لنفس موقع السقوط، معلماً المكان ببروز حديد الكوبرى.. قال أحد الركاب إنه كوبرى سموحة.. لكن بالإمكان وضع القدم على الأرض.. العودة مشياً على الفلنكات.. بين القطارات.. لكن كيف؟

تخلو الأرض من حوله.. تتمدد عيناه المستسلمتان لقدره الكئيب، متطلعاً للفضاء الراكض، كمن يود القفز ليصاحب الركض الخلفى.. متوقعاً بحس ينشد أملاً مستحيلاً. لانصياع الشبشب لقوة أمانيه المتوسلة لتواجده أمامه، ملبياً نداءه الداخلى، مانعاً عنه انثيال الدمع.. عذاب الروح. رحمة بأم نائية هناك.

انفض الجمع. تقطعت أواصر الرحم والمواساة..

رافعاً القدم بيدين مرتعشتين. ناظرا بذعر أكبر، ناسياً أنه كان هنا - بجواره - رفيقان، لم يعد يدرى إن كانا واقفين هناك أم أذهبهما الخوف، فتواريا مع من تواروا مغادرين القطار..

انكب على منظر قدمه، والرمل المتناثر على جلدها المنفوخ. رمل متلاصق، يصعب نزعه بأصباع يد تخشى ملامسة القدم..

وآخر الركاب يذهبون.. وأخر يصعدون.. يتزاحمون.. يثرثرون.. وقطار آخر هناك - ربما نفس القطار الطوالى الذى جاء به صباحاً - واقفاً. تشفط أبوابه ركابه المهرولين.. الطلبة والجنود، والفلاحين.. حاملى الطسوت الفارغة.. قطار، كان لابد أن يركبه ليعود - قبل غروب الشمس - لبلده البعيد.. البعييد.

الــوافــد

قـابع هـو بركن بعـيـد من الإدراك.. مـتـوفـز.. شكله المريب غـيـر المألوف يحرك فى غرائز البغض المرذول والتطفل.. لم تربطنى به أية صلة ولا تحـيـة صباح، أو كلمة يمكن أن تقال، تربط بين راكبين اعتادا على اللقاءات اليومية عند ركوب الترام.. فأنا أراه بين اليوم والآخر.أحياناً أجده - عند صعودى - جالسا حيث ينتهى آخر الخط الدائرى ليبدأ الترام فى العودة إلى المدينة..

يعبـر تلافيف رأسـى مـا يكمن هناك لفـتـرة اخـتـراقى لأبدان الركـاب.. ويتلاشى مع الصـراع اليومى المتكرر.. فأنساه.. إلا أنه يتعلق بالركن البعيد من الإدراك.. بغيضا.. فأختلس إليه النظر عبر الرؤوس.. يحتل الكرسى الخامس أو السادس، ذلك الكرسى المخصص لراكبين متجاورين، ليكون هو بالداخل إلى جوار النافذة. آمناً.. يفصله عن تراكم الأبدان المتلاصقة بالممر، ذلك المجاور له الذى يتوجب عليه تلقى كل ضغوط البشر الواقفين، المتعجلين، المهتزين - صمتاً - بحركة الترام.. لم أره يوماً يشغل أحد الكراسى الفردية بجانب الممر مما جعلنى أرقبه عن عمد. متكلس الوجه ضيق العينين. أنفه معقوف كمنقار الغراب.. بنى الشعر كالمصبوغ بالحناء.. يطالع كتابا، أخفى عنوانه بورقة

جـرنال قـديم مـثل الغـلاف.. أردت يومـا الاقـتـراب أكـثـر لـرؤية بطن الكتـاب المفتوح.. لم أر سوى ورق الجـرنال. وبين أصابعه المرفوع بها الكتاب جزء من مـانشـيت.. مـصـر... دافـيـد. كـان اسم مـصـر ممسـوحـاً نصـفـه لكثـرة حك الأصابع.. واسم دافيد باهتا.. إلا أنه واضح.. كان يطالع بغير اهتمام كمن يوارى منظره المريب وغير المألوف عن ركاب الترام. و.. ينظر بطرف عين إلى الجالس بجواره ليبدأ عملية التزحزح، رويدا.. حيث يزيح بالمرفق مرة حين يقلب الصفحة. وبالكتف أخرى وهو يلتفت بجسده إلى الحقيبة. وبالورك أحيانا عندما يستدير ليفتش فى الحقيبة الموضوعة يساره تحت النافذة يحرك الحنق المتامى بدن المجاور.. ينهض مؤثرا الصمت الضجر وعدم العراك، ويذهب بعيدا. فالنوم لم يزل محشوراً بتجاويف الرؤوس..

ولا يجب إثارة المشاكل مع رجل معتوه..

أحيانا يرفع الحقيبة من تحت النافذة ليضعها بين وركيه أو يضعها بينه وبين المجاور إن كانت امرأة، بحيث يتوجب إزاحة جسدها إلى طرف الكرسى. أو النهوض. فيحتل الكرسى وحده شبه آسف، مع أنه ليس بدينا أو كريه الرائحة.. ولكن لمحت بعض الذين جاوروه بالكرسى - قبلا - قد تشبعوا بالنفور، ولم يكرر أحدهم الجلوس بجانبه حتى لو كان الكرسى خاليا، فبوسط الكرسى هو، يطالع الكتاب. ويلمح الواقفين بالممر..

يومـاً بعـد يوم. بدأ يتـقـدم من الكرسى الخلفى، إلى الكرسى الرابع. فالكرسى الثالث. فالثانى والقريب لظهر السائق المجاور لأول باب، والمتاخم لظهر الكرسى الذى أختاره لنفسى يوميا ليكون بعيدا عن الزحام المتكاثر، وقريبا من الباب الأول لسهولة الانفلات عند النزول.. لكن مشاعر البغض المراودة تعملقت فىّ. بغض يتولد من صمته المثير للأعصاب.. وتحديه بالنظر المستهان بالناظرين إليه بغضب.. رافضين تواجده.

لكنه راكب مثل كل الركاب، من حقه استعمال أية مواصلة تروق له.

لم يكن يشبه أحدا من سكان الورديان. التجار والصعايدة. عمال الجمرك وشياليه. أو لنا نحن عمال الحكومة المحكومون بالمرتب والمواعيد.. جلده المصفر ملىء بالنمش كحبات النشارة..

ساورنى الشك. وتعمدت النظر إليه.. أدير رأسى.. أراه بطرف عينى.. هو الآخر يبادرنى النظر متعمدا.. مدركا ما يساورنى من شك وغيظ.. يناورنى بنظرات مراوغة، تجمع بين الاستخفاف والتجاهل ومزاولة التحرك التى باتت مألوفة ومحفوظة لدى الركاب حتى لم يعد أحدهم يعيره أى اهتمام.

أعرف أن هناك غرباء - بوسط البلد - أقاموا البيوت والمتاجر.. كانوا يتوغلون بالضواحى البعيدة، يستلذون بالشمس.. أقول فى بالى، مستثمرون فلا ضير..

يتاجرون بالغلاء الوحشى ولا ضير.. لكن هذا. أرهف إليه السمع.. ربما ينطق فأعرف من يكون. فوه لم يفتح أبدا. أمد عينى.. أختلس نظرة لأعرف مكنون الكتاب.. لكن يوجه الغلاف نحو عينى. ويطويه ليرتد إلى بصرى حاسراً.. ويعيد فتح الكتاب، فأعيد النظر. يلمحنى. أحاول إثارته بالتلصص.. يبتسم بتهكم المستغرب إمعانا فى غيظى..

من أين يأتى صباحا، وإلى أين يذهب..؟

فى أى الشوارع يقيم؟

الورديان لايوجد بها فندق واحد.. إن كان سائحا زائرا فما داعى تواجده المستمر هنا..؟

أيقطن إحدى العمائر المشيدة حديثا..؟ ربما..

بدأ يراقبنى. فأرصده بحرص. يلمحنى عندما أصعد.. يبتسم بثقة القائم المتمكن.. ويلمحنى حين أنزل فيتعمد إغلاق النافذة أثناء سيرى فى الشارع

إلى جوار الترام قبل مغادرة المحطة.. ألتفت بدورى أرى خياله وراء الزجاج يغض الطرف فى تجاهل بغيض..

تعمدت يوما البقاء بالترام، لأعرف أين يذهب. لكنه نزل فى المحطة التالية لمحطة نزولى وتوارى وسط البشر بالسوق..

قررت الانتظار بالترام الذى سيدور من ميدان محطة مصر ليبدأ دورته الجديدة عائداً إلى الورديان، نادماً على ضياع يوم عمل سوف يحتسب إجازة..

بدأ نوع جديد من الركاب البسطاء يتوافد على الترام.. رجال الأعمال الحرة.. نسوة السوق وبائعو كل شىء. يهرعون ليحتلوا المقاعد الخاوية..

كنت بمكانى المعتاد بالكرسى الأول المتاخم لكرسى السائق متوقعا رؤية ذلك البغيض.. والمحصل يصعد. يحتل مكانه، قال من العربة الخلفية:

– كل راكب يجىء ليأخذ تذكرة.. هيا.. الورديان..

تركت منديلى لأحجز به مكانى من الكرسى ريثما أدفع وأعود.. هرعت إلى المحصل، والبعض يهرع إلى الدخول حين عدت، وجدت منديلى مزاحا إلى طرف الكرسى.. كان جالسا مكانى بجوار النافذة يتطلع إلى الخارج..

إكتفيت بالصمت البغيض الذى غمرنى.. جلست إلى جواره. وحين صعد السائق وحياه بأدب. و. بدأ يتململ بجسده. حرك ذراعه اليسرى فوق الحقيبة. ثم فتح زجاج النافذة ومال بكتفه نحوى. أخرج أوراقا من الحقيبة.. لكزنى بالمرفق فى قفص صدرى واعتذر بإيماءة رأس. ثم أخرج قلماً فلامس منكبه طرف أذنى بإيماءة أخرى..

تكاثر حنقى.. كان يلمحنى والترام يهتز ويقرقع، وهو يزحزحنى قليلا.. شعرت بأنه سيوقعنى من طرف الكرسى. ويلمحنى كمن يخيرنى بين الوقوع أو ترك المكان. إلا أننى تململت قليلا وأزحته إلى جوار النافذة بغضب.. وثبت قدمى بالأرض بقوة.

خطوة.. خطوة

لمحها واقفة إلى جواره. تعالج التوجس بفرك الأصابع تلتفت برأس ملفوف بإيشارب ملون نحو آخر الشارع.. ثم يتكىء جسدها الشارد النحيل المكسو بثوب قديم إلى جذع شجيرة عجفاء..

بجانب عين كاسحة شملها، فأعادت توجيه النظر نحو أخر الشارع الطويل الضاج الذى يشق صفوف البيوت والمقاهى والدكاكين والعربات، وقضبان الترام الممتدة تبرق وحدها..

ابتعدت - بتذمر - عن جذع الشجيرة، وتنهدت بزهق روح استر يارب..

بخطوة، حث القدم، وتوقف يرنو متوقعاً أن تعيد طرد الزهق ليتقدم بخطوة أخرى.. مؤكد أحست بتحرك قدمه فوق أسفلت أسفل الرصيف ليكون أكثر قرباً، وليشم رائحتها التى لم تصله بالرغم من تقارب المسافة.. غمره سرور حذر لصمتها وهى تهبط الرصيف ببطء.. فكر بنقل قدم أخرى، فى حين بعثت النظر الشارد إلى أخر الشارع..

أخرجت أول الكلام المدفوع بالأسى الدفين..

- ترام نمرة كام بيروح القبارى..؟

افتعل صوته الخشن نبرة تهدج ملتقطا صوتها الأسيان بأذنين أفرغهما لسماعها لتبادل الكلام..

- أنت رايحة فين بالضبط؟

ألاح سؤاله بوادر الحزن الناهض من صدر التنهد وانتقلت العينان إلى أخر الشارع لتتوها هناك..

ثم حولت النظر لوجهه الثابت نظره عليها..

- رايحة لحد القبارى..

- فين.. فين فى القبارى..؟

- هناك. فى مساكن المأوى، تعرفها.؟

مساكن المأوى!؟ تبادر لذهنه - ذلك المكان الموحش المغمور بسواقط البشر. أخر القيعان الموبوءة للمدينة.. لماذا تود التوجه إليه وهى لا تعرفه، وفى ليل بدأ يغوص فى ظلمة الأسرار والكتمان.؟

قال كمن يحدث رفيقاً..

اركبى الترام معايا. أنا رايح هناك ساكن بعد المأوى والوجه - مضطرباً - نحو أخر الشارع يتجه.. وبهمس فم متوتر: ربنا يستر...

- و. ساكن لوحدى.......

قالت بقلق المشغوف غير المدرك..

- هو حضرتك ساكن هناك.؟

- ساكن بعد المأوى.. لوحدى بعدها بمحطة وأنت؟

- أنا ساكنة هنا، فى محرم بك..

تناهى لسمعها المرهف قرقعة الترام القادم من بعيد..

- هو دا الترام الجاى..؟

وهى تتحرك بحذر نحو القضيب تبصر الترام المقترب.. امتدت يده وسحب ذراعها برفق محاذر..

- لأ.. حاسبى..

بثقله الكئيب انحط ترام ٦.. ثم مر ليكمل مشواره إلى حى الجمرك. قال متوقعاً التواصل إزاء صمتها للمس يده.

- لأ.. ترام تانى.. انت متعجلة..

لم تجب.. لم تنفر لسحبه ذراعها..

ربما لم تحس.. ربما افتعلت عدم الإحساس..

وليعيد سحب المرفق أو الذراع لكن ذلك كله يمكن حدوثه عند ركوبهما الترام.. قالت فجأة:

- الساعة كام دالوقت.؟

تعمد النظر لساعته بتألق الواثق من تواصل التجاوب

- الساعة تسعة.. تسعة..

طغى القلق على الصوت الدهش.

- تسعة..؟! ياه.. تسعة أنا اتأخرت خالص عن الراجل وتنظر إلى الترام القادم..

- هو ده الجاى.. اتأخرت عن الراجل....

كالمنوم المنهك انحط ترام ٢ المتجه لحى كرموز..

ثم شد، ومر..

- لأ.. ده رايح كرموز..

- وبعدين..؟؟.. أنا اتأخرت خالص...

والقلق يفرك البدن.. وحدها.. إلى أى مكان بالقبارى..؟ امرأة يأكلها التوجس.. ينهش الروح المشحون بالحركة واللهف. إلى مكان لاتعرفه..؟

فكر.. أهو لقاء رجل ينتظرها هو الآخر هناك.؟

انتوى قضاء الليل معه.؟. أنا بالجوار، أولى بالموعد.. كاد أن يمس ثوبها وهو يخطو نحوها مسافة نقلة حذاء.. ربما لامس الثوب ولم تشعر، وربما.. فوجهها القلق بدا مشفوط الجلد لحد بروز العظام.. قالت..

– مافيش مواصلة هنا أسرع من الترام.. اتأخرت قوى

– سواقين التاكسى بيرفضوا مشاوير المأوى..

طواها الذعر. تباعد به عنه توحش بالرأس شعر بأنه كان صفرا إلى الجوار قزماً غائب الملامح. قال بحنق.

– ضرورى مشوار مهم خالص موعد.. مهم خالص..؟!

– مهم خالص. خالص – همست – ربنا يستر وينتظرنى والليل يغوص فى بئره المعتم.. ليل يهبط من عل كطائر كئيب يراوغ رأسه المتضائل.. قال..

– أكيد الرجل ينتظرك بفارغ صبر..؟

– ياريت زمانه زهق ومشى.. أنا اتأخرت عنه خالص كان بغضه يتوالد رويداً يدفعه – بإلحاح – ليمسك بها – يلاحق هذا الجسد المتلهف المتاح.. قال..

– كنت خرجت بدرى شوية..؟!

باغتت صوتها المتحشرج غصة دموع، وهى ترقب الترام القادم.. قالت..

– هو ده ياخويا...؟

.. أخويا؟؟ بنزق اليائس الذى قرر الاستيلاء بالقوة..

– ده ترام ٤ بيروح المنشية كنت خرجت بدرى شوية!!

أخرجت من صدرها منديلا ورقيا.. مسحت أنفها وهمست بالغصة،

– المحامى هو اللى عطلنى بس يارب يكون الراجل منتظر قال مثبتا قدمه عن خطوة كاد يخطوها..

- محامى!؟ ورجل مين المهم ده.؟

ووجهها المشفوط المصفر يفضحة نور المقهى القريب بائسا.

- أنا بعت كل اللى عندى علشانه قال بصوت ممض شبه حانق..

- علشان الراجل..؟

- لأ.. ابنى.. ابنى ياخويا ما هو راجل..

- ابنك..! كبير ده..؟

- ابنى.. ربنا ينجيه وألاقى الراجل منتظر...

كان الدمع قد ترقرق بالغصة وهى تمسح الأنف..

- ابنك.؟ ماله.؟

- ١٨ سنه.. ما عنديش غيره.. ابوه ضاع فى الدنيا وسابه لى.. مغلبنى.. اتعارك مع واحد، هو وواحد صاحبه..

صاحبه ضرب الراجل بمطوه فى وشه وهرب.. الحكومة مسكت ابنى.. طيب ابنى ذنبه إيه..؟ موش صاحبه هو اللى عور.؟ ابنى ذنبه إيه؟ يترمى فى السجن شهر منتظر الحكم.. والرجل المضروب موش راضى يتنازل عن القضية إلا لما ياخد فلوس.. المحامى قال لى أعطيه فلوس أحسن.. لكن ولاد الحلال.. ناس معرفة هناك فى القبارى.. ناس جيران الراجل، وعدونى يكلموه.. يترجوه علشان يتنازل عن القضية.. موش عارفة راح ينتظرنى.. والا يكون مشى.. وأهو الترام أتأخر.. هو ده اللى جاى..؟ كان يتباعد بخطوه..

- أظن هو ده الجاى..

أنحط ترام.. وهى تركض إليه..

فى حين تراجع الرجل إلى الوراء..

إلى الوراء بخطوة أخرى متسعة..

التــلاميــذ

توقف التلاميذ الخمسة على محطة الترام..

تأبطوا الكتب الدراسية والكراريس.. وكانوا يختلسون النظر ناحية سكة الترام الممتدة الفارغة، وقد افتعلوا التجهم الشديد والجدية. صانعين بأجسادهم، مختلفة الأحجام، حلقه شبه مغلقة.. يتبادلون فيما بينهم النظر، كأنهم يتدبرون أمرا يخافون أن يتطلع أحد عليه..

أومـأ أولهم برأسـه، ايماءة أدركوا على الفور معناها، إن كانوا يملكون نقودا.. قلبوا الشفاة شبه الجافة.. أطرقوا برؤوس خجلى، ومسحوا بأيد مصفرة فوق جيوب القمصان والسراويل، ثم هزوا الأدمغة فأدرك الأول بانهم فارغون..

تحرك الاول نحو حافة الرصيف ليكون فى المقدمة، وتحرك الثانى ليكون وراء الأول، فالثالث، والرابع، ثم الخامس..

كانت الشمس تبسط ضوءها الدافىء فوق منطقة القبارى. والبيوت القصيرة المتفرقة خلف مكابس القطن تنشر الرجال والنساء وأطفال المدارس فوق الأسفلت المندى بالصباح المبكر..

تفرقوا صوب المحطات..

توافد البعض على محطة التلاميذ.

كان الترام القادم يتهادىء، يتراقص كامرأة حبلى، من جوف المدينة زاحفا فوق قضبانه البراقة، ليقبل، بعد التوقف، نحو حى الورديان.

حين توقف. تدافعت الأبدان بالمناكب والأذرع والسيقان.

تعمد التلميذ الأول أن يكون أول الصاعدين، مقاوما الزحام برغبة الوصول السريع لمنضدة المحصل المنشغل بقطع التذاكر..

مد يده بذراعه المرفوعة، شاهرا الاشتراك المغلف بالبلاستيك الأزرق ليراه المحصل الذى هز رأسه ليدخل التلميذ.. تملص بدنه فورا وبسرعة، والقى البطاقة، خلسة، من أقرب نافذة إلى جواره..

التقط التلميذ الثانى البطاقة، وتدافع بجسده النحيل بين أبدان الركاب. كانوا يعالجون مسألة الصعود القسرى. حتى إذا بلغ مكمن المحصل المنشغل، رفع يده المتوترة عاليا وهو يقول..

– اشتراك..

فى لهف تقدم، وفى حركة خفية، منه، القى البطاقة من نفس النافذة ليلتقفها التلميذ الثالث المتحفر، والذى صعد بحركة متقنة ومتمرسة على الانفلات من بين تلاحم الاجسام المتكاتفة..

استغرب البعض لطول فترة الانتظار، تلك التى انتظرها السائق..

فكر البعض بانه، حتما، ذاب ليبتاع شيئا، أو يشرب شايا..

فكر آخرون بمدى طيبته وطول صبره، فقد آثر الانتظار حتى يصعد الجميع بهدوء، فالبعض لا يزال فوق الرصيف يعانى.

كان الرابع قد تناول البطاقة، وزحف نحو المنضدة، متعمد التعب، يلهث.. رفع ذراعه قبالة وجه المحصل الذى بدأ يضيق، ويصيح بالناس أن يفسحوا

الطريق لغيرهم.. بينما توقف الخامس بعيدا عن موضع المنضدة. فى حين تسللت يد الرابع من بين الأفخاذ ليناوله البطاقة.

تقدم الخامس بحذر وتوتر من منضدة المحصل المنهك، ورفع ذراعه وهو يدخل..

التقى الخمسة هناك بركن من العربة الأولى..

راحوا يصلحون من ثيابهم بعد أن وضعوا الكتب والكراريس بين الأفخاذ والاسنان، وتنفسوا براحة الوصول سالمين عبر ممر الخطر.. وزالت الجهامة، الجسدية المفتعلة.

إلا ان السائق لم يتحرك..

تصارع الركاب الباقون على الباب الخلفى، بدوا كتلة هلامية ملونة الثياب والرؤوس والسيقان ناتئة خارج المستوى الطبيعى لجدار الترام الجانبى.. حتى خلت أرض المحطة..

لم يتحرك السائق بحمله المتكدس المخنوق.. استحثه المحصل قائلا..

- هيا بنا.

عين السائق ثابتة، تكاد تثقب المرآة الخارجية، يأكل وجهه الضامر غيظ خفى.. جز عليه انيابه، وحول نظره فى المرآة المثبتة امامه فوق التابلوه بمستوى رأسه ليرى بها باب نصف الترام.. لكنه لم يكن ينظر لذلك الباب.. انفرطت عيونه الحمراء تثقب وترشق الوجوه بحثا عن موقع التلاميذ الخمسة.

كانوا هناك، وقوفا، يصنعون حلقة مغلقه بإجسادهم المنضغطة، يتهامسون ويضحكون ويتحدثون عن المدارس والمواد المقررة المعقدة وكبرياء الاساتذة قليلى الخبرة والثقافة.

ثم فتحوا الكراريس، وتبادلوا النظر والرأى والمقارنة.

تفجر الغيظ الكامن بجسد السائق، فهب بغتة واقفا.. لم يعد يتحمل وطأة الغيظ.

اعترض الركاب وتذمروا.. اشتعلوا غيظا. وهو يخترق اللحم المتداخل المتساند كحصان جامح.

كتم التلاميذ مشاعر الأرتجاف حين أحسوا بقدومه.

لحوه وهو يتملص ويقترب.. توقعوا بانه يقصدهم رأسا.. آت اليهم وهو مشحون بالأعين والنظرات والهمسات المريبه.

أخفوا الوجوه خلف الكراريس. ودوا لو تلاشوا فى الكتب.. لو أصبحوا حروفا فى كراسة قديمة.

أيقنوا بأنه يقصدهم بالفعل جاء ليمزق وجوههم إهانة ومذلة والعيون، الضجرة، تنظر، تسبهم افتعلوا الهمس للتورية.. وعيون الركاب تتساقط مصوبة نحو السائق، المندفع قبيل أبتراد سخونة غيظة نفشته العيون حتى تضخم، مد للتلاميذ يدا خشنة ومترية.. قال بصوت توتر بالغضب المكتوم..

- أين اشتراكاتكم؟

كانوا يتقلصون، والامعاء تتلوى، تتجمد. تجف، ليهبط عليهم صمت يلف الألسنة، يمور فى الدم المتصاعد لأمهات الرؤوس لتتكمش جماجمها وتتباعد داخل جلد الوجوه التى اختلجت، محاذرة هذه اليد الممتدة المكنون فيها كل الغيظ والغضب. كف تعارضت فيها خطوط سوداء متعرجة تشبه زؤبات الكرابيج.

والعيون المغروسة بجسد السائق تتهاوى. تترامى عند أقدام التلاميذ، فوق مزق النعال المغدرة والسراويل الضيقة القصيرة والمتسخة - سراويل أعوام منصرمة، كانت للآباء وحيكت، دون مهارة، لتكون على مقاس الأبناء.

مصمصت بعض الشفاة، خرقت طبول الآذان، فازدادوا انكماشا..

تصلبت الأيدى، مقروضة الاظافر، فوق الكراريس المفتوحة، واليد ممتدة..

قال..

- أين تذاكركم؟

حتى التلميذ الاول، حامل البطاقة الوحيدة انخرس.. شلت رأسه ارتجافة خجل فاطرق صامتا.. متوقعا مباغتة رفع الكف وسقوطها فوق الخذ الملتهب.

تحرك السائق، فاحتموا بالتداخل خوفا من احتمال سقوط اليد وهو يقترب ليفرق تداخلهم بيد راحت تقتحم وتفتش الجيوب. بين تخاذلهم المستسلم، ووهن أبدانهم المرهقة..

اخرج من جيب أحدهم أربعة قروش وسن قلم رصاص مكسور.

نظر. وأعادهم للجيب وأحساس ضو بعيد يمس مشاعر الغضب فيه.

أخرج من جيب الثانى وريقة مطوية وقلما جافا وبعض حبات من فول سودانى مقشور وذابل. اقشعر بدنه بشعور شفيق جارف حد من شراسة الغضب لديه..

عندما أعادهم للجيب، هطلت فوق ظهر اليد نقطة من دمع.. فاختلج شعوره، وانتفض كأنه بزيح العيون المرشوقة بجسده، بينما تدنو برفق، من جيب التلميذ الأول المنتقض خفية والسائق يخرج البطاقة الزرقاء وينشرها قبالة عين الولد المبللة بدموع تماسكت وأبت النزول.. أرتعشت قسمات الوجه وكأنه يود لو قال شيئا يدفع به الخجل عن نفسه.. لكنه أطرف..

- إشتراك واحد، تركبون به جميعكم.؟!

والركاب يجمعون عيون الضجر، الامتعاض الواضح فى الهمس الدائر واللفظ..

قال السائق بصوت متحشرج..

هل تعرفون ماذا يمكن أن يحدث لو صعد المفتش.؟ سوف يوقع علينا الجزاء، ويخصم اليومية.. يا أنذال..

ترقرق الدمع بالمآقى.. قال وهو يعيد البطاقة لجيب الأول..

- على أية حال، سوف أسلمكم لناظر الورديات..

دفعته العيون المتذمرة وهو يسرع الخطو نحو كرسى القيادة، قال: قلة أدب.. طيب.. ساريكم..

وبدأ القيادة. ورأسه يستدير صوب ركنهم القريب.. قال بغصه حلق.

- إسمعوا.. أنا أراكم جيدا. لو تحرك، أحدكم من مكانه لن أرحمه. ياأنذال..

والترام يبتلع قضبانه، والمحطات تأخذ ناسها المسرعين وهو يقول..

- سأحمل أهاليكم أجرة التعطيل.. ساخرب بيوتكم يا أنذال..

توارد إلى الذهن أهل بيته.. ترى.. أذهب الأولاد لمدارسهم الآن.؟

وتذكر الخبز الذى يعده كل صباح وقبيل أزدحام المخابز ليحتفظ به إلى جواره حتى موعد انتهاء نوبة عمله.. لقد أيقظته زوجته بالفجر لينزل، ولم تنس - والنهار لم يطلع بعد - أن تذكره بأن مدرس البنت الخصوصى لم يأخذ مرتب الشهر..

تحتم عليه الاسراع، فليعوض ذلك التعطيل. لابد من عمل نوبة زائدة أضافية، وحتى آخر الليل، ليكون يوما آخر.. فإن إبنه البكر، تلميذ الثانوى، قد طلب منه آلة حاسبة، ولابد أن يأتى بها له خلال أسبوع، فهو ليس أقل شانا من زملائه هناك..

بلغ الترام آخر الخط، ليستكمل دورة العودة..

أنفرط الركاب.. تفرقوا بعيدا، بالشوارع..

هبط السائق وقد لمح التلاميذ واقفين بصمتهم الواجف، يتداخلون..

تلكأ وهو يتجه نحو كشك الناظر.. قدم له جدول العمل ليوقع عليه.. وتلكأ عند العودة.. تعمد السير ببطء شديد.. ثم استدار خلفا.. ذهب خلف الكشك ليتبول.. فى العودة.. كان التلاميذ هناك.. وكان موقنا من أنهم سوف يغافلونه ويهبطون.. يهربون.. يذهبون مع الركاب الذين ذهبوا..

حين صعد بغيظه، صاح فيهم..

– ماذا تنتظرون؟ اتريدون العودة معى؟ اتريدون الزوغان.؟ ألن تذهبوا لمدارسكم؟ هيا.. أهبطوا.. قلة أدب..

تأرجـــح

بذراعه النحيله، وبيد واحده، تعلق الولد بعامود باب الترام.. يحرك بدنه الصغير هواء مغبر يخلفه ركض الترام. ماداً ذراعه الأخرى. يلطم اعمدة النور المحازية لقضبان السكة بحقيبة يده المدرسية القديمة موليا وجهه الصامت شطر المدى حيث الشارع الطويل ونهايته البعيدة مطموس المعالم بفعل الجو المضبب الخانق..

كان يهبط فى المحطات ويتوقف فوق الرصيف، ينتظر صعود أبدان التزاحم والسباق..

ويعاود التعلق بقدم واحدة ويد واحدة..

والترام يركض، يثير هواؤه المغبر.. ترتفع اطراف المريلة الصفراء المتهرئة، تكشف عن بنطلون متسع مربوط عند الوسط بخيط دوبارة..

– اطلع فوق يأبن الأشقياء..

صوت المحصل الذى ارتقى طاولة التذاكر قاعدا ليتمكن من الرؤية والقبض على المتوارين - هروبا - بين الرؤوس المتداخلة فى شرود مفتعل.. رؤوس تشبه ثمرات البطيخ المتراكم فوق عربة نقل..

و.. يبدو ان الصوت لم يبلغ أذن الولد، أو سمع وتجاهل، فقد توقف بدنه عن التأرجح لبرهة.. ثم عاود التأرجح لبرهة.. ثم عاود التأرجح بإفتعال متعمد.. لكن انفرط صوت لرجل منهك كان يصارع الزحام ليدخل..

ياولد أسمع الكلام.. ياباى.. إيه الجيل ده.؟! ياولد.. زمجر الصوت فى رأس الولد. تجهم ونظر. لم ينطق.. استغرب وهز رأسه المشعت، كإنه لم يسمع.. أليس بالترام ولد غيره.؟ هناك أولاد آخرون معلقون بالوراء وعاود ارجحة اليد.. قال الرجل المنهك بغيظ..

- اطلع فوق يابارد..

حدقه الولد بنظرة جانبية ممقوتة.. فليسكت هذا الممصوص، ولا داع لتنبيه المحصل المشغول بتفتيش الجيوب.. انفلق رأس الرجل بعين الولد، كرتان من حديد ماتهب قد اخترقتا الدماغ، وتجولتا بعشوائية فوق التلافيف المتبلدة - لم تزل - بأثر النوم ولم تفق بعد رغم الصباح وبعنف. امتدت يد الرجل. وبالحنق الثائر سحب الواد وصعد به.. ارتطم الجسد بين الزحام..

ابن عفاريت..؟ أنت تلميذ أنت ياباى.. قلت لك اطلع.. اطلع.. اطلع.. ياباى.

ضعيفًا كان الولد، كفرع أجوف لشجرة عجفاء.. صمت المنهك أسيان القلب، متعب الروح.. أبتلع ريقه.. مفكراً.. أهو قوى رغم انهاك النفس..؟ أم الولد هو الضعيف جداً..؟

رفع الولد يده وازاح قبضة الرجل العظيمة عن كتفه.. قال

- مالكش دعوة..

.. وقد توقف بالركن المجاور والطاولة المحصل..

على الحنق، انقبضت يد الرجل المنزاحة.. الولد يصر على التجول المعاند والعبث فى التجاويف بالرأس المرتبك غيظا..

قال وقد تحولت ملامحه المنهكة إلى الشراسة..

- أنت جن.. يلعن..

حدق الولد إلى الوجه الشرس، بعين تقاوم الضعف الدفين وقد تجلت فى الوجه الصغير بوادر احتقان مرتعد..

- مالكش دعوة..

تشابكت تلافيف الرجل واهتاجت.. أتسعت عيناه وافرزت شررا.. انحنى بجذعه ليواجه الوجه الصغير الذى تجلد ارتعدت.. قال الرجل..

- أنت تلميذ أنت..؟! أنت جن.. فك الولد أختناق صدرة بقوله..

- مالكش دعوة..

وكانت اليد المعروقة قد ارتفعت وتأهبت للصفع، إلا أنه بوغت فتهدلت يده المرفوعة، مبعداً وجهه فى تقزز مكتوم من رائحة فم الولد الكريهة..

رائحة أخمدت ربكة التلافيف المتهيجة. أثلجت المشاعر المتقدة فارتاحت غضون الوجه ليتجلى الإنهاك.. صمت قدام الوجه الصغير المختلج بمقاومة البكاء.. قال الرجل بوهن..

- يابنى.. أنت جوعان..؟

ازدادت شفتا الولد اختلاجا.. قال بصوت أكثر تمردا..

- مالكش.. دعوة.

أرتفعت يد الرجل لتوضع فوق الكتف بحنو. لكن الولد أزاح اليد بغضب وهو يقاوم أحتباس الدموع..

طوق الصخب

ابتلعنى جوف الترام مثل كل صباح، إلى العربة الأولى. ابتعدت بنفسى المكتومة ببقايا النعاس العالق بتلافيفى المجبورة على الصحو بقرقعة الترام الدائر بآخر الخط ليعاود زحفه عائداً عبر محطات الورديان إلى بطن المدينة..

انتقيت مقعداً بوسط العربة، إلى جوار نافذة والتصقت بجدارها الزجاجى، متوخياً تدافع الأبدان التى يشفطها الباب الخلفى لتسكب على المقاعد، والأركان والممر. تتكتل مغلولة بالضجر والصبر المتأفف. وأنا. أدفن وجهى - كمألوف حالى - فى كتاب، وأبعث النظر، بين الحين والآخر، لصعود ركاب الباب الأمامى المتاخم لمكمن السائق، فوراء ظهره تربض أريكة كبار السن والمعوقين، وربما الحوامل.. وكالعادة، تذمر بعض الوقوف لصعود آخرين من ذلك الباب المزحوم..

كانت المرأة صاعدة. تتحشر. تدفع بصوتها المبهم تلاصق الأبدان بالممر. تحمل طفلاً صغيراً فوق المنكب، وخلفها طفل آخر ممسكاً بثوبها المزركش،

وطفل ثان بالوراء قابضاً على مريلة أخيه الزرقاء. كانا يحملان على الكتف حقائب مدرسية من المشمع السميك. و.. يتقدمون بإصرار متجهمين، توقفوا، والمرأة تحاول الدوران لترى العيال، وتتحرك كثيراً - ملتمسة العذر - ليكون الطفلان بالأمام. ضج محيطها بالضيق، ليفسحوا لها وعيالها مكاناً..

احمد لنفسى تباعدى عن موقعهم الصاخب بالأصوات المبهمة المتداخلة - فيمكن أن يصدعوا رأسى المنزوع - منذ قليل - من لذة النوم الذى يراوغ عينى - وربما يبكون ويصرخون.. مع أن كل الأصوات كانت تضيع معانيها وسط الزحام المتزايد والخانق.

نهض الرجل الذى بجوارى، وأشار للمرأة أن تأتى بعيالها. فانتابنى غيظ..

جاءت وبأثرها الطفلان يوجهان النظر المنتظر الشغوف لوجه الأم النحيل المحقون بالصمت المضغوط..

جلست، وأنزلت طفل المنكب وأقعدته على حجرها وهما يواصلان النظر المنتظر المقرون بالفرح لوجهها المتحرك مع جسدها المتخبط بجسدى النافر الضائق.. أشارت بأصابعها لأذنيهما وهما ينظران - بلهف - إلى حقيبة قماش بيدها التى أشارت لهما أن ينتظرا حتى تأخذ أنفاسها، فراحا يبعثان العيون إلى خارج النافذة بقلق، ثم يحولان النظر إلى الأم بضجر الموشك على تفجر البكاء.. أغلقت كتابى عندما زغدنى مرفقها - قلت بضيق.. - وبعد معك؟! كفاك فرك..

لم تعرنى أذناً - اغتظت - وظلت سادرة فى تحركها بين العبث فى الحقيبة وتعديل جلوس الطفل الصغير الذى بكى ونظرها الناهر لوجهه الذى أزعن وصمت، بوقت تطلع الولدين وأصابعهما تشير لأذنهما بتذمر واضح..

حملت رأسى المنقور بالغيظ على كفى مائلاً بنظر جانبى إلى الأم. وهى تفتح الحقيبة.. ومن بين زجاجة ماء، وأرغفة مطوية وبعض غيارات الصغير.

أخرجت جهازاً صغيراً، ملفوفاً بسلك بطرفه سماعة أذن. حين وضعتها فى اذن الطفل الأول تفتحت مسام الوجه بالفرحة.. ثم فتحت الجهاز بين نظر الفرح وقدوم الصخب، وضعت أصبعين من «الحجارة»، ثم أودعته جيب المريلة، لينتشى الولد الآخر وهى تخرج جهازه. وتضع له السماعة فى الأذن والحجارة فى الجهاز. وتودعه جيب مريلته - ليخبو غيظى - لتنقشع لحظات الترقب الملهوف، وتنزاح غيامات الجهامة عن الوجوه..

كان الطفل الجالس قد. بدأ ينتعش مع إخوته الضاحكين. والأم يغمرها ابتسام صامت مع سكون الجسد وهى تطلق نفساً مرتاحا بلحظة اختلاسى النظر الأسيان المشفق.

مجلة حواء ١١/١٩٩٩

ولد صغير

حاول مساعد النقطة ثنى الذراع المفرود بمستوى الكتف المتصلب.. وحاول أحد الشيالين فرد الساق المرفوعة قليلا عند الركبة.. وحاول أحد العسكر فك وإبعاد الوركين المتلاصقين داخل بنطلون قديم واسع.. وحاول أحد الجمهور المتفرج «بأسى» تحريك الدماغ المتجمد بالعنق النحيل.. ولكن بلا فائدة.. وكان الولد، الصغير، المتجمد، قد نجح فى إثارة الفزع بإصراره على الموت، والتمرد..

نحيلا كان الجسد، مسود، بعث على الوجع والتساؤل.. لكن لم يوقن أحد إن كان الولد قد مات واقفا، أو مات قاعدًا، أو من خواء الجوف والريح قد مات،، والواضح أن الموت كان من تأثير البرد..

لو كان واقفا، ما ترك أحد الكبارى الجسد دون كسور، ولو كان قاعدا لتهشم الرأس، وربما سقط هناك..

أوقن أن استنشاق الريح المغبر والسناج قد جفف دمه: وقلص البدن الضامر، بتعاطف الأطراف، داخل الثياب القذرة. المحكمة الإقفال عند العنق

والوسط والقدمين، وكان الولد، كان قد تأهب،و بكل كيانه ، لهذه الرحلة... وأن، يسطح، فوق ظهر القطار السياحى العائد من القاهرة إلى الأسكندرية.. ويبدو. كما خمن بعض الوقوف.. أن الولد مات فى المسافة الواقعة بين محطة بنها، ومحطة طنطا.. ربما بين كفر الزيات وبركة السبع، ولم لا يكون بين دمنهور وسيدى جابر؟ لكن الجثة متجمدة منذ أكثر من هذه التوقعات. وأكثر.. منذ وقت بعيد.. ربما سنوات.. لكن عمر الولد كله لا يتعدى هذا الرقم.. الموت يأتى مصادفة، والواحد يتحرك.. ولكن لماذا جاء..؟ أهارب من ناسه؟ أبوه تزوج غير أمه؟ المرجح الأكيد. أن الولد مات بعد قيام القطار من القاهرة.. جسده خاو من أى أثر لدم أو خبط.. إندس بعض الواقفين، اختلسوا النظر..

رفع أحدهم وريقة الجريدة المستور بها الرأس.. وجه صغير، منمنم، مغبر، ساكن، مطمئن الملامح.. مستلق على ظهره، وكأنه سوف ينهض من نومه بعد قليل.. ينهض ويغافل الناس، يضحك ويركض.. رأسه مسنود فوق طرف المخدة.. مرتاح.. كف ذراعه اليسرى نائمة برفق فوق الجانب الأيسر من الصدر. فى هدوء ذراعه الأيمن ممتدًا بمستوى الكتف المنطرح فوق الفراش الوهمى: ساقه اليمنى مرفوعة فوق طرف الكعب فى هدوء إلى جوار الساق اليسرى الممتدة حتى حافة السرير الذى كان على مقاس بدنه الصغير.. مفتوح الفم كأنه لايزال يتنفس،،. وأنه سوف ينهض بالفعل بعد قليل ويركض، ويغسل وجهه المحشوة فتحاته بسناج الكبارى والريح..

نائما فوق عربة نقل العفش الحديدية، مدفوعة بأيد أثنين من الشيالين سال الدمع من أعين النسوة المذعورة..

وامتعض الضابط بأسى مفتعل وفرق الجمع الملتف فوق رصيف المحطة.. بكى الطفل وشد رفيقا له وسارا.. وحط صمت.. لم يجد التفريق.. أنهمك

رجال المحطة فى تفتيش جيوب الجثة، لم يعثر أحد على ما يدل على أسمه أو عنوانه..

قلبوا البدن المتجلد.. حجرًا.. شدوه.. وضعوه فوق نقالة الأسعاف ودفعوا به إلى صندوق العربة المغادرة لينفض الجمع.. وأخر ما أدركته أذناى.

- مسكين.. ..

... وحين دخلت فراشى، مشحونا بشكل الولد المسكين، برأسى دهشة الولد.. غموض الولد.. تناولت أوراقا وقلما.. لكن بدنى أرتعد فجأة.

سحبت عليه البطاطين، وقلت فى بالى.

أكيد هذا البرد من تأثير الجوع.. فأرتعد الجسد ثانية.. فكرت فى النهوض لآكل.. وضعت الأوراق والقلم جانبا. وارتعشت.

تقرفصت تحت البطاطين ونمت ■

مجلة القصة العربية

طعام الليل

كانت المدينة ترتعش بحضن الليل البارد..

الطريق خاو، ينسج السكون الرتيب المخدوش بصوت مألوف لترام مزحوم يزحف ببطء.. توقف فجأة بوسط الشارع الممتد المظلم آخره.. رفعت رأسى المنحنى الغافى.. أنظر عبر رؤوس ركاب آخر الليل الكسولة.. رفعوا أثقال أجفان التعب ونظروا عبر الزجاج المغبش إلى الخارج المعتم، نستطلع التوقف المباغت..

وقفت موجهًا عينى نحو باب النزول المجاور لمقعد القائد..

فتح الباب. لكن أحدًا لم يصعد..

نظر البعض من النوافذ.. لعل العامود العلوى انخلع من سلك الكهرباء أو صدم الترام أحد، إلا أن خلو الطريق أجلسنى فى لحظة وثوب أحد الركاب وهرولته نحو الباب المفتوح وامتداد ذراعه. التقط طفلا صغيرًا مشعث الشعر وأشقر، يوارى اصفرار وجهه غبار متكلس.

أوقفه بأرض الممر وعاود مد الذراع مع انحناء جذع ورفع بدن امرأة قعيدة كانت تبغى الصعود زحفا فوق الدرج الحديدى، بدن ناحل هزيل فى ثوب رث فضفاض، برأس منكوش ومعصوب بخرقة ممزقة.. محمولة فوق ذراعى الرجل.. أفسح لها مكانا بين قعود أريكة المعاقين..

حين وضع الجسد، تدلت الساقان مشلولتين.. اقترب الطفل بيد الرجل. توقف برأسه قدام حجر أمه، يتطلع بعين اللهفة المنتظر لكيس بلاستيكى كان منحشرًا تحت إبطها.. أشارت له أن يسكت فاختلج وجهه بالغضب. حدقت به أن ينتظر..

كان الباب قد أغلق ليواصل الترام زحفه الملول نحو ظلام آخر يشمل منطقة مكابس الأقطان بالقبارى.

فتحت المرأة الكيس بحذر ورفق شديدين.. أخرجت أرغفة مطوية محشوة «بغموس» غير واضح.. فتحت فم الجوع وقضمت بنهم، والطفل يتابع عودة اليد القابضة والتى توقفت قدام الفم الماضغ بصوت عال ومقزز.. تبتلع يختلج الوجه مع العينين الغائبتين والطحن المأخوذ بلذة القضم والابتلاع..

رفع الطفل يده الصغيرة ولامس المرفق المتحرك.. سادرة هى فى القضم والمضغ.. زغد الذراع ثانية بوجه مزمجر.. نظرت اليه.. اقتطعت لقيمة. تناولها الولد بهلع.. مضغ مرتين وابتلع.. ونظر.. ثم زغد الذراع بالمرفق.. منحته لقيمة بعد أن أفرغت حشوها بإصبعين وضعت ما بهما فى فمها ثم لحستهما بلسان مشغوف.. تطلع الطفل إليهما وهو يبتلع.. تمضغ هى طويلا وهو يبتلع بسرعة..

أخرجت رغيفا آخر مطويا على حشو ما،. اقتطعت لقيمة.. تناولها بضجر وهو تقضم.. لم يأكل.. صمت.. أشار لفمها، يريد مما تمضغ رفضت بهز

رأس.. بكى هازًا جسده الهزيل.. أخرجت من فمها قطعة لحم بيضاء متجلدة قربتها من فمه، تقزز، ومضغ لقيمته، وهى تعيد القطعة لفمها وتمضغ طويلاً.. قبل توقف الترام بالمحطة التالية. أشارت لأحد الرجال.. شال الساقين المشلولتين..

لظهر المقوس الضام المنحنى على صدر ذابل وبطن مشفوط.. وضعها فوق رصيف المحطة.. وتناول الطفل من رجل بالداخل. وضعه إلى جوارها وصعد.. وأغلق الباب ليواصل الترام زحفه إلى ظلام آخر..

جريدة المساء ١٩٩١

صباح اللب المروع

بكل التبلد البدنى.. وعلى المقعد الثانى للترام.. انحط الى جانبى.. وأنا..
على الرغم من الصـــخب الدائر بين الركـــاب الذين يتكاثرون - رويدًا -
ويندمجون، إلى أعماق سطور كتابى - أدخل.. أغرق.. لكن الرجل المجاور دمر
مركز إدراكى بقزقزة اللب بطرف عين، لمحت حفنة اللب التى تتوسد كفه
اليسرى مرفوعة المرفق بثبات واليد اليمنى تأخذ اللبة ببلادة ذهن شارد،
تودعها الفم المتحرك، لتطحن تحت الاسنان بصوت التكة الأولى والمضغ.. ثم
تنزل اليد لتأخذ لبة أخرى، وترفع بكل آلية وتطحن. ويتفل القشور فيما بين
ساقيه المنفرجتين. طنت أصوات التقشير والطحن برأسى بادئ التصدع،
اعترانى قلق أثارنى والصوت يتواصل ليصبح فرقعة تقلقل جنباتى لمحته
بجانب عينى، محاذرا ألا يرانى مضغوطا بالحنق، فيزيد من قزقزته.

تحليت بصبر نظر الى خارج الترام.. قليلا وتنتهى الحفنة وتسكن ضربات
المطارق فى الرأس بتوقف الصخب الذى راح يغزونى بقوة كادت تدفع لسانى
ليفجر امتعاضى.. فأعدت النظر بجانب، ربما ينهض ويغادر محيطى ويهبط

بالمحطة التالية لكن بدنه المحطوط ترهل فوق الكرسى ساهم الرأس ومتجمد الملامح، غير واع، قلت فى بالى، فلأقل له ان أرض الترام التى غطتها القشور من حوله هى ملك لنا.. عيب أن نوسخها هكذا، وأن الذى يقوم بتنظيفها مساء هو إنسان مثلى ومثلك، وأن علينا أن نكون أكثر وعيا وتحضرًا، اكثر انسانية ونراعى مشاعر الآخرين.. الا أننى آثرت السكوت تحت ضغط الصوت المقرقع.. وقد خمنت أنه يتعمد اثارتى جلبا للمشاحنة أو ذهابى بما تبقى لدى من أعصاب فى هذا الترام المزحوم، البطء الصباحى المبكر الملعون الذى جمعنى بهذا الشاب المتبلد المزعج السابر فى القزقزة وتفل القشور.

تأهب لسانى المحبوس، لأقل له: من سوف يكنس لك الأرض الآن؟.. لكنى احجمت، مجزا على أضراسى ربما يقول لى بغطرسة «أنا حر» أنت مالك..؟

توقعت أن يقول.. وأنا أحدث نفسى. كيف تكمل يومك، بقية نهارك بأضطرابك لأعصابك وعملك الدقيق يتطلب أعصابا من جديد..؟

إلا أنه أخرج كيسا ممتلئا باللب.. أخذ منه حفنات وراح يوزعها بود وهدوء قاتلين على بعض أطفال المدارس الواقفين فى محيطه ليعم الكون صوت القزقزة المروع مع تطاير القشور.. صوت يعلو.. يعلو.. مفزعًا، ليطفى على صوت فرقعة الترام الزاحف ببطئ الى المدينة.

الوديعة

سألونى عن اسمى وعنوانى، وعن سبب اهتمامى البالغ، والمتوجس للصبى الملقى - بإهمال - فوق أرضية عنبر الاستقبال المزحوم بالمرضى والمصابين.

كان ينزف دم ساقه الناشع من الخرقة المربوط بها الجرح العميق الذى لاتزال صورته البشعة التى رأيتها أول مرة ملتصقة بذهنى، تؤلمنى..

قلت لهم أننى لم أعرفه اصلاً، وليس لى به علاقة.. وجدته هكذا ملق على رصيف المحطة ينزف ويصرخ مستنجدًا - بصباح مملوء بجمهور ركاب يزحفون ركضًا إلى خارج المحطة.. وحده يصرخ. يعانى ألمًا بشعًا، انتقل إلىّ لأننى رأيت منظر الجرح الغائر المتهتك، بعينى. صعب علىّ. ولذلك جئت به ليعالجوه.. قالوا، عليك بالأنتظار ريثما ينفضون أيديهم الملوثة بالدماء من بعض المصابين الآخرين.. قلت لهم أن الصبى صغير ونحيف، ويمكن أن يفرغ دمه المتدفق خلال الجرح، قالوا، عندك مبنى المستشفى الأستثمارى بالجوار، لو كنت متعجلاً.. ولم يبالوا لصمتى، أو قولى..

وقـد تحـول قلقى على الولد الذى تكاثر بكاؤه، مـتطلعًـا لوجـهى الصـامت المندهش، وكأننى مسئول عنه وعن ضرورة علاجه، وانقاذه.. مما جعل القلق يتحول لنفسى، لروحى، فلست بحاجة لصبى آخر يتعلق بتلافيفى. يكفينى ما أحمل، ومما اقلقنى أكثر سؤالهم عن اسمى، وعنوانى.. واهمية تواجدى معه، وكيفية عثورى عليـه.، وإن كنت أملك سيارة،. فـلأقل الحـقـيـقـة.. قلت لهم أننى مـجـرد مـوظف بسيط.. أيمكن أن يعالجوا الصبى ويحتجزونى على ذمة التحقيق.؟.. وراودنى الهم والخوف من تأخرى عن العمل وقد قاربت الساعة التاسعة..

وقفت إلى جوار الصبى مسلمًا أمرى لما يأتى ويستتجد من ظروف، متخليًا عن التفكير فى العمل وقد انصرف الصباح، فالشمس الساطعة قد توغلت عبر نوافذ العنبـر الرهيب مـلا حظًا بين الحين والآخر سـاق الطفل المستسلم لوهن بدن منهك واسلمنى عـيناه الحـمـراوين، والدمـوع تشق بوسـخ وجـهـه اخـاديد، ولمحت ابتسامة تلوح، كأنه يوحى لى بأنه نجح فى الايقـاع بى، وتطويعى لحمله فوق منكبى والوصول به إلى هنا فتذمرت منه...

كان الكوبرى قد صدمه اثناء تعلقه بالباب خارج القطار المندفع قادمًا من ضواحى الرمل يأكل قضبانه، فأكل حز الكوبرى السفلى ساق القدم، فانشق اللحم وتمزق عن دم سـاخن، فـجـر بصـدر الصـبى صـرخـة وتشبث بحديدة الباب.. صرخة هتكت أغلفة الصمت من فوق الوجوه المزحومة بالعرق، والقلق، والزهق فمـد القـريبون من البـاب أيديهم، ورفـعوا الولد خـلال البـاب المفتوح. ووضعوه بالممر، بين السيقان وكان يتلوى..

الأشمئزاز المريع ولى الوجوه شطر الخارج بعيدًا عن بدن نحيل ضئيل ورث يتلوى بجرحه، لفظوا مشاعر الذعر الأسيان لعنات وشتائم، مفكرين مثلى فى خـروجـه الآن من بيتـه، وركـوبه القطار المبكر بوقت يحـتم على الطفل وجـوده بالمدرسة..

تطوع أحد الرجال وأخرج قطعة قماش مزركش كمنديل وربط بها الجرح المتهتك اطرافه الملتصقة ببياض العظم الداخلى.. ربط بقوة ليحبس الدم المنبثق، مباعدًا انفه والوجه، اتقاء روائح الصبى الكريهة - كان القطار يتهادى بوهن الموشك على التوقف بالمحطة الأخيرة، كرجل عجوز مجهد وصل إلى بيته لينام، راح يتقيأ احشاء جوفه المرتبك لحوم مجهدة، توزعت فوق الرصيف بهلع، يهرولون نحو ابواب الخروج الواسعة، مخلفين بالوراء صبى يبكى، كمن يفرون من بشاعة المنظر، وليحضروا دفاتر التوقيع، أو الأختباء وراء عربات الأسواق، ولم يبق أحد سواى، ورجل توسمت فيه الشهامة ونخوة ابناء الريف، يقاسمنى الهم على الولد، وقد نظر لوجهى الناظر له، كأننا نفكر من منا سيركض أولاً قبل الثانى، فأنا لدى عمل ينتظر وجودى، وهو - مؤكد - مثلى..

لزم كلانا صمت غريب، وقد تماسكنا بقوة زائفة إلى جانب صبى ينظر إلينا رافعا ساقه بيده. نحن المنتظر كلا منا من الآخر أن يتبرع وينحنى ويحمل الصبى، فأنحنى الرجل ورفع ساق بنطلونه، كمن يود هرشها، فلمحت رباطًا يشبه الجبيرة يلف سمانته، مما اوقع بروحى حتمية التسليم فى حمل الولد. ساعدنى فى انزاله من باب القطار، ووضعه على الرصيف. ولد تعلق بيدى متشبثًا بخوف انفلات يدى، فأزددت همًا، وموجدة تشبه الشجن.. قال لى الرجل أنه سيذهب ويأتى بعربة تاكسى، فلابد أن تسعفه بأقرب مستشفى، هى الأميرى فأيقنت فورًا أنها ذريعة للهرب..

وغاب طويلاً، وبالفعل لم يعد..

اقترب شرطى عجوز طيب الشكل، ونظر، ونفر مستبشعًا. وسألنى (ابنك) فلم انطق حيث أنه لم يدع لى فرصة للرد. بل مال بجزعه النحيل، وساعدنى فى حمل الصبى وهو يقول مجاملاً. (آجى معاك)، وكنت قد حملت الولد مع شعورى بأننى اصبحت مسؤلاً عن حملى، ومهمة توصيله إلى المستشفى.

وايقاف نزيف ساقه.. أصر الشرطى أن يحمله معى. وكان ذلك متعذرًا لتوقف الساق المضروبة. مع اعتقادى بأن الشرطى «مياس» وكاذب، فقد حملت الولد، وانتهى الأمر، وقال (عموما المستشفى قريب من هنا هى فركة كعب.)

ولابد لواحدًا فقط أن يقوم بالحمل، بحيث تكون المقعدة فوق وراء العنق مع تدلى الساقين على الصدر واسناد الساق المضروبة، وهى اليمنى، بذراعى أو كفى الأيمن، آخذًا باعتبارى أن لا يمكن لشرطى أن يحمل أحدًا بزيه العسكرى. وبصمتى وانحناء عنقى نظرت له، وانا اضبط الولد فوق كتفى، بحيث أكون قيمًا ومرتاحًا اثناء سيرى بالطريق إلى المستشفى الذى يستغرق نصف الساعة، فسلكت شارع صفية زغلول محتملاً ثقله المتزايد رويدًا، رويدًا، مع قذارة قدميه المدلاة على صدر قميصى المبقع بالدم، وتطويق رأسى بذراعيه، وضغط بطنه على مؤخرة عنقى، شاعرًا بتوقف بكائه بتوقف دموعه التى كانت تساقط فوق فراغ رأسى. واحيانًا كان يدخل بعض اصابعه فى عينى، فأزيحهم برفق شديد حتى استطيع رؤية طريقى الذى استطال، مع احتمال - ايضًا - خجل باغتتى من بعض العيون التى رأتنى واستبشعت مندهشة، ومشنقة لأب - حتمًا فكروا بذلك - أب مسكين يحمل طفله الجريح، ولا يملك ثمن أجرة التاكسى.!

نفيت امتلاكى لأية مركبة يمكن أن تصدم أحدًا، مدللاً على أننى لم أعرف حتى القيادة، وأن القطار هو الذى صدمه.. قالوا.. كان ينبغى عليك، والحال كذلك، تركه هناك لتأخذ السكة الحديد حقها من أهله بعمل محضر «شعبطة» طالما ليس ابنًا لك.. القانون، قانون.. لعنت وقت داهمتنى فيه الشجاعة والشهامة، ومشاعر الأبوة التى جرفتنى وقتذاك: وكان يجب تركه ينزف حتى النهاية.. لكن الولد تعلق بطرف بنطلونى كمن يمنع عنى البعد عنه مجرد خطوة، فتركت له ساقى ليتعلق بها وليطمئن قلبه.. قال لى أحد مسئولى العنبر

أن انتظر ريثما تفرغ يد الدكتور، ربما يجد لى مخرجًا ينجينى من المسئولية، وانقاذ الطفل، قلت له، أنه لابد من ذهابى لألحق بتدوين أسمى بدفتر الحضور بالعمل.. تجاهلونى وتوجسى الذى بدا واضحًا فوق ملامحى العرقة، متجاهلاً بدورى تواجدهم المزحوم والولد القابع بأسفلى ككرة حديد بسلسلة قيدت بقدم سجين تعيقه عن الحركة، فرحت - خلال ثباتى - اشاهد المرضى والمصابين بعينى، وأسمع ضجيج التأوه بأذنى، منصهرًا بينهم ودون أن أدرى، كانت يدى تلامس، مداعبًا، شعر الطفل المسكين..

قال لى أحد المرضين وهو يسحب مريضًا أتعرف عقوبة التسطيح فوق ظهر القطار؟ قلت له.. وهل انا كنت مسطحًا؟ لا أنا ولا الولد. كنا داخل القطار..

كان يحادثنى وهو منشغلا، متجاهلاً إجابتى، مما أشعرنى بالضآلة والغيظ، فانحنيت على الولد أسأله مستوضحًا عن عنوان بيته، وأسمه، وأسم أبيه، انذعر وبدأ يوالى صراخه المتأوه، قائلا.. «لأ.. بلاش ابويا.. بلاش تروحله.. بلاش والنبى يا عم. ابويا بياع خضار ف محطة مصر، بلاش تروح له.. سيبنى أموت هنا أحسن..

وقد فك تشبثه بساقى كمن يريد الهرب..

(أبويا لو عرف، راح يموتنى. والنبى يا عم..)

سألته، كاتما غصة أسى بحلقى

(أنت كنت رايح لأبوك لما الكوبرى ضربك؟)

(أيوه.. انا شغال معاه على العربية.. ودايما يسب لى ويضربنى لما أتأخر عنه الصبح شوية. أصله بيبات فى السوق لحد الصبح، وانا بروح امسك مكانه علشان ينام له شوية.)

كان قد ترك ساقى تمامًا وزحف، أو زحفت أنا قليلاً وسط الزحام المحيط، وهو يرقبنى بدمعه، وانا أرقبه بغصتى عبر الفضاء المتاح، الضيق، الفاصل بين الأبدان المتقاطعة، يتمسك بأطيافى، استبقاء خيالى.

يدعونى بدمع رسم فوق الوجه الملوث خطوطًا نهرية متطاولة إلى جانب مخاطه المنساب على فمه الملتوى المضموم على الألم المذعور .. أن أبقى بجانبه.. وقد فصلنى عنه ابدان مصابين أخرى وافدة. كانوا يأتون. يهرولون. مندفعين. متعارضين، إلى غرفة الأصابات الكبرى، يتبعهم ذويهم..

تباعد الولد .. راودنى شغف ولهف رغم تقهقرى إلى الوراء.. داهمنى شعور شغف بالفقد..

هرعت أبحث بين الحشد الموجع عن الطفل.. كان منزويًا بجانب حائط. مستلق على ظهره، رافعًا ساقه، حاشدًا كل همه بالنظر إلى قدمه، انحنيت. معيدًا اياه إلى عنقى، كتفى..

لو سألونى فيما بعد - فى العمل - عن سبب انقطاعى. لن أقول لهم شيئًا يتعلق بمسألة الولد. ربما يقولون ولماذا انت بالذات الذى تطوعت وحملته..

ولن أقول لزوجتى حين تسألنى عن بقع الدم التى على قميصى - ربما ازيل هذه البقع بمعرفتى..

كان قد توقف عن البكاء، مطوقًا رأسى، متشبثًا بقوة أكثر، وانا متشبثًا بقوة تصلبى المزاحم متجهًا رأسًا إلى غرفة الطبيب كالمخترق..

محطة الخواء

(١)

تراودنى.. ورأسى مهوش بين يدى صديقى الحلاق.. (هل أقصر قليلاً ؟)..

تتسلق تلافيفى، بجسدها النحيل.. يتبختر.. والوجه الصغير ضحوكًا كان، ومحاطًا بشعر بنى مطلوقة خصلاته من بين حواف إيشارب الرأس الأحمر، يتراقص كالفرح بفعل هواء قطار يتهادى بخيلاء، يفجر بالوجه فرحة كانت مخبوءة، تتصاعد وتوتر البدن عند استقراره بجانب الرصيف كرجل يأخذ أنفاس الراحة ثم يمنحها الشىء المأمول، لكن الأبواب تلفظ ركابًا من كل الأنواع. يسكبهم الجوف فوق الرصيف لتمعن فيهم هى النظر واحدًا واحدًا، بلهف تنسحب معه البهجة رويدًا عن الوجه الضحوك ليقنط مع نزول آخر النازلين. ليصعد آخرون. مثقوبون كانوا بنظراتها المدققة منذ وقت الانتظار وبيد الرفق الغضوبة تلامس بدن القطار بلحظة قيامه.

كمن تقول: هيا امض ليأت غيرك. ولتفسح له المكان.. وهو يتسلل فوق قضبانه كالغاضب الكسول، وسرعان ما يركض صارخًا مودعًا خواء يفترش

الرصيف. يتغلغل ليمكث بالروح مدة اختفاء القطار بين المساكن البعيدة، لتتصلب وحيدة بأمل متجدد بقدوم قطار آخر يكمن به ذلك الشىء المأمول.

(تريد تغطية هذا الفارق الشاسع بالشعر؟).

بالرصيف المواجهة أكون، وهى بالرصيف متوحدة بالخواء. وجونلة سوداء طويلة.. وبلوزة بيضاء متهدلة. تجوب الرصيف بدبيب كعب حذاء عال. كانت الأرض قد بدأت تأكل حوافه على مهل.. تنظر فى كل الأنحاء بدأب الباحث المتوقع رؤية المأمول هابطًا من السماء أو صعوده من تحت الأرض بشكل مباغت..

ثم تمد الخطو بصمت صابر مضغوط على الصدر بفعل الذراعين المعقودتين بوقار مفتعل، وخطو وئيد، فوجوه الرجال بدأت تبدو عبر المدخل، تتوافد، وهى تتفرس بحياء يتخفى وراء وجه ضحوك.. يتكاثرون تباعًا.. تجوس بهرولة كالراكض الخجلان.. ليس هناك هو.. تتوقف حين تخترق مشاعرها بعض الأنظار.. تسأل أحدهم عن الساعة، وتوجه النظر إلى القضبان، وحين يجيب المسئول، تومئ برأس الشاكر الحائر المندهش لتأخر القطار..

ويجتذب البدن هاتف يومض بالذهن بغتة. يهيم بالعينين والقلق.. تهرع إلى المدخل، إلى الأركان المعتمة.. تتحسس جوها الساكن بلهف.. يمكن أن يكون مختبئًا هنا للمشاكسة.. لكن الهاتف يتفاقم.. يراوغ الذهن.. تدور حول أعمدة المظلة، قريبًا من تجويف حوامل المقاعد الحجرية.. تهرول عائدة إلى موقع مبنى شباك التذاكر.. يلتصق ظهرها بحائطة الزجاجى لتتمكن من رؤية وجوه الوافدين الجدد وهم يشترون التذاكر ليخمد الومض الهاتف والتوقع.. تركض إلى حافة الرصيف ممددة الوجه والنظر، يمينًا مرة. وشمالاً مرة أخرى.. يبتهج الوجه بأمل يصحو، ينمو بضوء قطار آخر يتجلى فى المدى ويتقارب

بوهن، مثقلاً بالأبدان المنهكة، يغشى القضبان.. تتفتح بالصدر المنتشى مساحات رحبة، تشمل القطار المجهد الآتى ليرتاح هنا لبرهة.. لكن قبل دخوله المحطة، يومض الهاتف، تركض بشغف حول الوجوه خشية انفلات وجه جديد يمكن أن يكون قد وفد وتوارى فى غفلة منها.. وتعود بصدرها المفتوح، بتأهب الروح لاحتضان القطار الذى يطرد آخر أنفاسه المتعبة.. تصلح هندامها باختلاجة جسد يغمره ابتهاج بشوق رؤية المأمول. تباغت آخر بالسؤال عن الساعة، ولا تنتظر إجابة، فيدها المرتعدة بالفرحة تعدل الإيشارب المعقود عند العنق، فتصلصل فى الأذنين أساور قشرة الذهب. وترفع حوض الجونلة ليظهر الحذاء المغبر قليلاً مشطوف الكعبين تمسحه، والقطار يطرد من جوفه ركاب الليل مثقوبى الأدمغة بالمكابدة النهارية ونظرات الأسى المتهافتة من عيونها التى تلاحق الوجوه بصحبة الهاتف الوامض لتهرع.. تتوقف لدى المدخل لترى كل الآتين.. من هنا يمرون. يتفرقون فى السوق والأزقة يمرون.. تطالع.. تبحث لتسأل آخر الذاهبين عن الساعة، وهى تحت خطا التمهل الواهن نحو فراغ الرصيف.. تنظر لبدن القطار الذى تسلل هاربًا ببطء هو الآخر، تاركًا لها الخواء والليل وبقايا ريح تنذر بالبرد.

توافد ركاب آخرون اعتلوا الهاتف الوامض.. نساء توقفن مع رجالهن والأطفال.. مس القلب حنين هائج أبهج الوجه الضحوك.. مشغولين كانوا بالصمت والإنتظار الملول.. يومض الهاتف.. ينحى البهجة عن الوجه الذى تجمد بشحوب مباغت.. اعتلت سور درج المدخل الواطئ.. ترصد الركاب الليليين حاملى أكياس الخبز والخضر والرؤوس الثقيلة.. مؤكد ذلك الرجل المأمول، منقوش بالذهن.. قال إنك آت إليها.. إلى هنا.. مؤكد.. موعدها كان فوق الرصيف.. ولم يقل - ربما - بأى وقت بالنهار سوف يأتى.. راكبًا قطار المدينة.. كان يجىء مع بداية انسحاب النهار، وولوج أول الليل.. ودائمًا ما

توشك الساعة على العاشرة.. ربما تأخر قطاره.. لكن كل القطارات تمر عبر الضواحى فوق هذه القضبان وتنتهى هناك (بأبى قير)..

(٢)

- إيه يا رجل أين ذهبت برأسك..؟

كان صوت صديقى الحلاق يعبر قشرة رأسى.. يشدنى من فوق الرصيف.. يعيدنى إلى المقعد والمرآة..

- ها هو رأسى بين يديك..

- منذ جلست وأنا أسألك.. هل أقصر الشعر.. أم.. ..؟

أجدنى مأخوذًا بالمرآة.. غزيرًا شعرى وأسود مشعثًا حول الفراغ الأوسط الذى كان يتسع رويدًا.. شددت جلد وجهى برفع رقبتى ودنوت من المرآة أتفحص شعيراتى البيض الواضحة بالذقن النابت.. عدت بظهرى لأقول:

- ما رأيك لو أطلت سوالفى قليلاً؟

قال وهو يقصف شعيراتى البيض بالملقاط:

- السوالف الطويلة يمكن أن تظهر بياض ذقنك.. خاصة هذه المدفونة بجانبى رأسك..

ضحكت لوجهى الأملس المطبوع على المرآة.. لشاربى الأسود..

(٣)

ليل الحر الخانق يلف المحطة، فوق الصمت المراوغ والخواء.. وهى بخطوها الواهى الوئيد تزرع الرصيف وتودع - بالنظر - قطارا توارى هناك بين المساكن المضببة بأغبرة الجو المعلقة.. رفعت طرف فستانها الصيفى المزركش، وكومت الجسد فوق مقعد بأسفل المظلة.. تدور عيناها بتأهب المشرع فى القيام المتوقع ظهور الشىء المأمول.. لكن حين رفعت ساقًا فوق ساق بدا جلد السمانة مصفرًا، ومغبرًا.. كان كعب حذائها متآكلاً ومحيكًا نعله الملوث بطين يابس..

تأسى منى البصر.. انبعث بالروح ضوء قطار آت.. غمر المحطة والصدر بالنعيق الذى أرجف البدن الناهض بلهف..

أصلحت من هندامها.. فستان باهت الزركشة.. إيشارب منحول النسيج والحمرة.. وارت خلف نطاقة شعرًا مهوشًا.. مسحت الخد والآخر بيد، وبيد تحسست بروز الجسد المنتشى.. لكن الهاتف الوامض أحال الرأس إلى التطلع فى المدخل.. يتوافدون.. ركاب الليل.. يتناثرون على المقاعد والرصيف.. تائهى النظر.. يتثائبون.. تتخلل الأبدان وأماكن الوقوف بهلع.. تمعن النظر عن قرب.. وجهًا بعد وجه، دونما يندهش أحد.. كأن الوجه هذا والنظر قد صار مألوفًا لحد عدم الشعور بتواجده.. كان بعض الركاب يجيبون عن الساعة دون أن تسأل.. والقطار يلفظ أنفاس التعب ورواد جوفه والعرق فوق الرصيف.. لتبحث بركض الجسد وهاجس الفزع، والهاتف الوامض يدفع.. تركن الظهر عند المدخل.. لحظة.. يتفاقم الومض.. تهرول، تسابق الوقت.. تنظر لكل وجه.. تصدر صوتًا خافتًا كان مخبوءًا بالقلب (كامل.. كامل..).. تحوم قبل انتهاء آخر الوجوه..

القطار رجل معاند، لا ينتظر أحدًا هنا، يبتلع ركابه ويرحل بوجل وقور تاركًا لها والرصيف هدوءًا وصمتًا ينتظر كسره بقدوم قطار آخر يأتى بالمسمى كاملاً..

تضحك بوجه يتجعد لرجل التذاكر المتجمد وراء شباكه.. يتغيرون دومًا وهى تهرع فوق الرصيف، تضحك لرجل يحمل فولاً وخبزًا.. تدور حول شاب يتأبط فتاة.. تومئ لامرأة حامل، ولطفل تعلق بثوبها.. ولماسح أحذية يتابع رجلاً منهكًا مكعوب الحذاء.. وتضحك بنظر خجلان لطفل راح يتبول ويصنع دوائر تتعالى وترش القضبان.. .. .. ..

(٤)

يغشانى. بوهن. صوت صديقى الحلاق المتراخى

ـ لقد تأخرت هذه المرة.. هل تعرفت على حلاق غيرى؟

ـ وهل أستطيع؟ انظرى لشعرى.. يا حذق.. واحكم..

ـ إذن أنت تحاول إطالته. ربما تفكر فى إخفاء الجزء الأبيض هـا.. يا صديقى الغفلان، رأسك ثلثه أبيض..

ضحكت، تلاقت أخاديدى فى المرآة المغبشة..

ـ ما الذى يرغمنى على تحمل عناء المشوار من الورديان إلى باكوس غير مقصك الفنان.. و.. مرآتك القديمة المسوسة.

ـ يا صديقى هذه المرآة جديدة، لم يمض على تركيبها عام واحد..

ـ إذن وجهى هو المغبش؟ تقصد هذا..؟

ضحك وهو يقول..

ـ ماذا أفعل بوجهك أنا لى رأسك..

ـ خذه.. لكن دع لى مخى..

ـ رأسك دون المخ يتثاقل تحت يدى ويتخشب أريده معى لينًا.. أشعر بك كأنك تحمل هموم العالم..

ـ شعر لعين يطلع بغفلة منا.. تصور أننى لا أنظر لمرآة بيتى أبدًا.. مثلما أنظر هنا عندك..

ـ مشاكل الدنيا تأخذ الواحد. والزمن يمر.. هذا أمر الخالق..

ـ أمر الخالق والوطن وفواجع زمن الحرب والعبور...

كان شعرى الفضى المقصوص يتطاير.. يتساقط فوق الفوطة والأرض ويتناثر وتدوسه أقدام الحلاق..

ـ أنت تدوس على شعرى يا أحمق حلاق..

- كان شعرك.. وأصبح زبالة.. هذا شعر قفاك فقط..

- قفاى..؟!

- كل الأقفية تقع هنا تحت يدى. أيها الغفلان..

ضحك وضحكت. ورأيت أمكنة أضراسى المخلوعة.. تأسيت..

(٥)

منكمش البدن المتكور بالزمن فوق مقعد بأسفل المظلة.. مضمومة الساقان النحيلتان - متكلسة القدم بوسخ قديم - إلى البطن المشفوط أسفل الصدر المترهل ورا ثوب مهترئ.. جذاؤها الممزق منزوع الكعب مقلوب، مهمل بأسفل المقعد وحده.. مرفوع طرف الثوب المبقع بالقار والطين، كاشف عن لباسها الداخلى، ممزق وباهت السواد حول عمودين ضامرين.. بشرود مركون الرأس المعصوب بإيشارب بال، انطلق - بتمرد - من خلال ثقوب شعر متجلد أبيض..

بين الحين والآخر، يرتفع الوجه الخامل متجعد الجلد،، تمسح المحطة بنظرة لهف مباغت، وبصوت متبلد واهن.. (كامل.. كامل..).. تسأل من يصادف وقوفه جوارها عن الساعة، دون سماع إجابة. مع أنها ترى الشفاه المجيبة.. (يا كامل..) صوت يحشرجه غصة وجد مشتاق.. لعل كاملا يجيب.. يسمع.. رويدًا يعلو الصوت.. يلتاع بومض هاتف تكابر لحد اكتساح الذهن ليستبد بالدماغ.. كامل.. لعل كاملاً يسمع.. صوت يتعالى عند نعيق القطار بالمدى البعيد..

تنهض بوهن.. تركض بوهن.. تصرخ.. كامل.. ويصرخ القطار الواقف.. يغشى صراخه فوق صراخها.. تربت بحنو على بدنه الحديدى وهو يغادر الرصيف ببطء الراحل المتمنى البقاء بجوارها يرحل ليتعدى الرصيف..

(٦)

. لا أوفقك أبدًا على صبغ شعرك..

ـ لكن البياض زحف إليه.. أشعله كله..!

ـ وهل تغير الصبغة من تجاعيد الوجه؟

أمال رأسه الليفى نحوى وهمس ضاحكًا..

ـ أرى فمك وقد تجدد من الداخل..!

ـ نعم.. هذا طاقم جديد..

ـ أريد واحدًا مثله.. بكم ركبته..؟

(٧)

احتواها ركن جانبى من المدخل.. قاعدة.. قنفذ متكوم وقذر.. مدهون الوجه المترهل بلون أحمر فاقع.. تحيط بها أحذية قديمة متناثرة.. أكياس بلاستيك متراكمة ومنبعجة.. زجاجات مغبرة ملقاة.. شعر أبيض مهوش. متجلد، يطوقه قطعة من قماش تهدلت فوق الحاجبين المدهونين بالورنيش الأسود.. وفم أهتم كان يهمس كلما مر من قدامها قطار.. كامل.. همس لم يكن يصل لغير رأسها المتطلع للخواء... ■

محمد محمود عبد الرازق

مدن وضواحى

قصة: «التغلغل» لأحمد محمد حميدة من القصص المبكرة التى أدانت التطبيع مع العدو الإسرائيلى. «الوجوه الجبرية» تتغلغل داخل الراوى. تتكاثر أمام عينيه - وهما لاحقيقة - وتروح وتجىء وتدور حوله حتى ترتقى عيناه عصبا «كغمامة تثاقلت فوق محجرى العينين المفنجلتين ليطبعوهما بالدهشة والغرابة». كانوا يتسكعون بثقة زائدة وصلف بالغ، ويسيرون بلا مرشد لأنهم يعرفون الدروب والمسالك يذكر الراوى أنه شاهدهم فى السنترال ومحطة السكة الحديد وبعض دور الصحف، وحاول الهرب منهم إلى أعماق المدينة، لكنهم كانوا يتغلغلون ويكبرون حتى شعر بالضياع فى مدينته: «أين أذن تكون مدينتى؟».

ويقدم الكاتب صورة معبرة للجندى المهان أما المعبد اليهودى: «تقدم جندى الحراسة، اقترب بزيه الأبيض، ترك باب المعبد المغلق ودنا من دائرتهم، تجلت

ابتسامة الرضا الودود، ريفية المنبع، فوق وجهه المشرب بحمرة الخجل، توقف بصمت المنتظر لسؤاله، كانوا فى لهو عن تواجده المفاجئ. نظر أحدهم إليه، ثم تابع الحديث والتطلع إلى قبة المعبد القديم والنجمة السداسية.. تنحنح الجندى لتتجلى لهم قدرته على التواجد (....) يد الجندى ترتفع ببطء ويد أحد الرجال تمتد ببعض النقود الفكة، توضع فى يد ذى الزى الكالح لينسحب ببطء..

وأراد أحمد حميدة أن يعود إلى إدانة التطبيع مرة أخرى بمجموعته: «مدن وضواحى» فكانت قصة: «الوافد» الذى يستأثر بمكان مفضل فى الترام، فهو يحتل الكرسى الخامس أو السادس المخصص لراكبين ليكون بالداخل إلى جوار النافذة، يفصله الراكب بجواره عن الأبدان المتلاصقة بالممر المجاور له وتراه «متكلس الوجه» ـ لاحظ الوجوه الجيرية فى «التغلغل» ـ ضيق العينين،«معقوف الأنف كمنقار الغراب. يبدو شعره كما لو كان مصبوغا بالحناء «يطالع كتابا أخفى عنوانه بورقة جرنال قديم مثل الغلاف» أراد ـ يوما ـ الاقتراب منه لرؤية الكتاب فلم يفلح «لم أر سوى ورق الجرنال.. وبين أصابعه المرفوع بها الكتاب جزء من مانشيت.. مصر.. دافيد كان اسم مصر ممسوحا نصفه لكثرة حك الأصابع.. واسم دافيد باهتا.. إلا أنه واضح..». ولم يكن يشبه أحدا من سكان «الورديان» سواء من التجار أو الصعايدة أو عمال الجمرك «أو لنا نحن عمال الحكومة المحكومين بالمرتب والمواعيد..».

بيد أن الكاتب لم يقنعنا بالمستوى الرمزى، وظل المستوى الواقعى هو المسيطر حتى النهاية رغم ظهور بعض أطياف للمستوى الثانى. فهو راكب غاشم يريد أن يضر بالجميع للاستئثار بالمكان وحده: «حرك ذراعه اليسرى فوق الحقيبه. ثم فتح زجاج النافذة ومال بكتفه نحوى، اخرج اوراقا من الحقيبة لكزنى بالمرفق فى قفص صدرى، واعتذر بإيماء رأس.. ثم أخرج قلما

فلامس منكبه طرف أذنى، واعتذر بإيماءة تكاثر حنقى.. كان يلمحنى والترام يهتز ويقرقع، وهو يزحزحنى قليلا.. شعرت بأنه سيوقعنى من طرف الكرسى ويلمحنى كمن يخيرنى بين الوقوع أو ترك المكان.. إلا أننى تململت قليلا وأزحته إلى جوار النافذة بغضب.. وثبت قدمى بالأرض بقوة..».

والشخصية المحورية فى هذه المجموعة هى أداة المواصلات. وتتركز فى الترام والقطار، ويظهر «مترو الانفاق» فى قصة «ليل النفق الطويل» وهى مستوحاة من زيارة لى فى حلوان، وإن كنت لاأستاهل صفة العدل التى ألحقها بى فى مفتتح القصة: «كتبوا العنوان فوق المظروف الأصفر.. منحونى نقود لزوم السفر والانتقال، وأكدوا على أن أجد العنوان، وإقناع الرجل بالحضور فهو أعدل الناس لمناقشة محتويات المظروف..» ويتساءل بالسياق بعد أن ضاق بالقاهرة: «ألابد من هذا الرجل؟.. أليس هناك عادلون غيره؟!..» وفى نهاية القصة تتفاقم الأزمة ويفقد الراوى المظروف: «شرعت بالسؤال ورفع اليد.. المظروف، المظروف، التفت مذعورا.. عدوت.. حلوان ترتج برأسى، عدوت.. مترو يغادر.. ومترو يسكب ركابا.. أهرع، أسأل، أرأيت مظروفا أصفر عليه عنوان،، عدوت الميدان المكتظ بالخلق.. أسأل.. لعل أحدهم رآه معى لعل أحدهم يبحث عنى.. لعل أحدهم رآنى معه.. لعل..».

ويصف الرحلة بدء من ركوب القطار بالأسكندرية: «انغمست مع ركاب الفجر. مكدودون لحد النعاس.. طلاب منهكون يراجعون الكتب والكراريس بأعين كابية تتحدى الاجهاد.. بائعة جائلون يحاولون تسليك الحناجر بنداءات معلق بها بقايا نوم لم يكتمل.. نساء منكمشات ملفعات بفوط الوجه والجلاليب.. وبرد مدبب ينسل عبر فتحات النوافذ المسكورة ينخر العظام..». وحين وصل إلى القاهرة لم ينس أن يبحث عن تمثال رمسيس. ويبهره النفق: «قطعت تذكرة لحلوان.. مروع النظر مبهورًا، الجدران ملساء، وأرض ملساء،

وصناديق من الزجاج البللورى تحتوى على تماثيل الفراعنة،، حدقت مدهوشا.. ها هو تمثال رمسيس محبوس فى صندوق زجاج صغير.. سخيف انكمش وتوارى فى النفق؟! اسم أنور السادات.. أدركت.. متواجد أنا فى حضرة «السادات».. وهو أيضا متواجد. لم يمت بعد.. على الحائط معلقًا فوقى..». ويبدو أنه يصف محطة «أنور السادات» بعد تحرك القطار من محطة «حسنى مبارك».

ويشغله ثُقب فى كم البلوفر منذ بداية القصة. شبكة بدبوس. وبعد تحرك القطار احتجاج الدبوس ليغلق فتحة القميص: «بدا الثقب دائريا كبقعة بيضاء». وعندما هباء إلى النفق نزع الدبوس من صدره لمواراة الثقب «أعين المتطفلين تختلس النظر، ويتغاضون. يتيحون الفرص ليوارى المثقبون ثقوبهم» وذلك - لا ريب - احساس الشخصية، فالناس يشغلون - عادة - عن ثقوب من لا يعرفونهم. وفى المترو جلس بجوار النافذة فتوارى الثقب، وجلست بجواره امرأة متصابية كانت تنظر فى وجهه: « تشاغلت.. فوق ساقى المظروف.. الاسم ثلاثى.. العنوان رباعى.. غبش الوجع بالعينين، وثقب يتسع..» ويستمر فى وصف الزحام وتحركات الركاب وأحاديثهم، والخروج من النفق إلى سطح الأرض. وينشغل بالنظر إلى «كيفية فتح وإغلاق الأبواب آليا».

وفى : «ولد صغير» يقدم لنا كاتبنا صورة لطفل مات فوق ظهر القطار السياحى العائد من القاهرة إلى الأسكندرية: وتتألف القصة من عدة تساؤلات. فالولد كان متجمدًا. لم يتأكد أحد من طريقة موته. لو كان واقفا ما ترك أحد الكبارى الجسد دون كسور. ولو كان قاعدا لتهشم الرأس، وربما سقط، لا شك أنه مات من البرد «استنشاق الريح المغبر والسناج قد جفف دمه» متى: وفى أى مسافة مات؟.. لا أحد أيضا يعرف. لماذا تسطح؟.. ومن هو؟.. لم يتأكد أحد سوى من واقعة الموت.. وواقعة الموت بذات الطريقة التى

تشير إليها بعض مواطن القصة وهى: الجوع والبرد من الممكن أن تحدث لأى صبى لا نعرف عنه شيئًا، إنها صورة رائعة - رغم الهول وربما بسبب الهول - لفنان أصيل.

ونصعد إلى الترام مرة أخرى فى قصة «طوق الصخب» لنرى أما تحمل طفلا ويمسك فى ذيلها طفلان، ويشق الجمع الزحام إلى أن ينهض شخص من جوار الراوى لها. ورغم فاقة الأم فإنها تخرج من كيسها جهازى راديو تضعهما فى مريلتى ولديها وكان ما يحدث فى الزحام من صخب لايعنيها، وحين توضع السماعات على آذانهما ينتعش الطفل الجالس على حجر أمه مع اخوية الضاحكين» والأم يغمرها ابتسام صامت مع سكون الجسد ، وهى تطلق نفسا مرتاحا بلحظة اختلاس النظر الأسيان المشفف».

وفى قصة: «تأرجح» نشاهد ولدًا صغيرًا يقف على سلم الترام قابضا بذراعه النحيلة على العامود، ويده الأخرى ممسكة بحقيبته المدرسية القديمة التى يلطم بها أعمدة النور وعند توقف الترام كان يهبط بالمحطات إلى أن يصعد الركاب ثم يعاود الوقوف على قدم واحدة وكان الولد يهرب من دفع الأجرة وللتأكيد على فاقته يقول الكاتب: «ترتفع أطراف المريلة الصفراء المهترئة، تكشف عن بنطلون مربوط عند الوسط بخيط دوبارة». ولاحظ تأرجحه رجل «منهك» فطلب منه الصعود إلى الداخل فلم يأب الصبى به، وكلما نهره الرجل ردد عبارة واحدة «مالكش دعوة» حتى رفع الرجل يده المعروقة تأهبا لصفعه، بيد أن يده سرعان ما تهدلت عندما شم رائحة فم الولد «الكريهة» وعندما سأله «يا ابنى انت جوعان». ازدادت شفتا الولد اختلاجا، ولم يمنعه جوعه من مواصلة تمرده الذى يصدر عن نفس أبيه وترتفع يد الرجل لتحنو على كتف الصبى،.. لكنه يزيح اليد بغضب: وهو يقاوم احتباس الدموع».

ويظهر قطار أبى قير فى معظم القصص، ونرى المحصلين فى الترام والقطار، لكن يبدو أن الراوى للمجموعة يناصب محصلى هذا القطار العداء، وتبنى قصة: «فقدان الحواس» على محاولات الهرب من الكمسارى. كان الراوى يرهف السمع - رغم الزحام - لصوت قطع التذكرة، ولهذا الصوت وقع سىء فى رءوس ركاب الصباح «المتجهين نحو المدينة لتأكلهم المصالح والإدارات» ولا يخفى سبب الهرب من الكمسارى عن فطنة القارئ، لكن الكاتب يزيده ايضاحا: «ربع على ربع يكون نصفا ونصف على نصف.، وهكذا نوفر للبيت ثمن كيلو لحم مثلج.. يشد من عصب العيال..». وفى الكرسى المقابل يجلس رجل وزوجة يتهامسان، ويظن الراوى أنهما يختلسان النظر إليه، ثم يتضح أنهما كانا يختلسان النظر إلى الكمسارى، فقد نزلا فى خفة طفلين عندما اقترب، ثم عاودا الركوب من الباب الآخر لنفس العربة.

والكمسارى فى قصة: «صوت المطر والريح» يتضخم كلما ازداد اقترابا، حتى اذا توقف أمام «فتوح» بدا أكبر: كغول اسود» يلامس برأسه سقف العربة فى ثم جعل الكاتب يمارس اللواط مع الأطفال المشردين بالقطار. وتتألف القصة من عدة مشاهد. فى المشهد الأول تحدثنا عن فتوح الذى يعمل بالحكومة نهارًا، وفى الليل يعمل جرسونا فى الحفلات الخاصة، وقد ملأ - فى هذه الليلة، صندوقا من الكرتون بحلويات ومشويات البوفيه.، كان المطر شديد والريح تزمجر، ومع ذلك استطاع أن يحمى الصندوق حتى استقل القطار: «جاور قطعة الجاتوه السليمة، المربعة، هذه لأم العيال.. تبسم.. استنشق روائح تملأ القلب المجهد».. إلى جوار أصابع الموز الكبيرة مكث.. صغيرته تحب الموز. الموز غالى بالأسواق، سوف يوقظ البنت لو نامت.. البرتقال يقطع أجزاء ويوزع على العيال بالتساوى، مع الحلويات، وليدع قطع الفراخ لتطبخ بها الأم».

المشهد الثانى ينقلنا إلى العربة المجاورة فقد سمع أنينا يصدر عنها «كانت

العربة ممتلئة - تقريبا - بأبدان الأطفال المنكمشين كالقنافذ، فوق كل مقعد طفل صغير تتداخل عظامه، متسخون وحفاه ونصف عرايا، أطفال النهارات الصيفية الملقون بلا ناس فوق أرصفة الشوارع، يقتاتون من أكوام الزبالة وفتات زائرى الحدائق.. متسولوا المدينة الواسعة، يتلاقون فى ليالى الشتاء فوق مقاعد القطارات يرتعشون». ومن المشاهد الرئيسية مشهد المحصل الشاذ وتتجمع هذه المشاهد فى النهاية. فعندما عاد فتوح رأى أطفالا أخرى يتخاطفون ويلتهمون محتويات الصندوق بشراهة ونهم متوحش، ناظرين نحوه بتحفز فآثر السلامة واتجه نحو مقعد بآخر العربة، ونظر «بكل الغضب والازدراء لوجه المحصل المتحرك بثقة».

وغالبية القصص بمثابة لقطات حزينة مكثفة مثل قصة «صمت الغفوة» الذى يشكلها سؤال أطلقه عجوز وهو بين اليقظة والنوم، ثم غفا مرة أخرى دون أن يستمع إلى الجواب: «هوت النهارده كام فى الشهر العربى؟..». وعليك أن تتخيل أسباب إطلاق السؤال، وهل كان يردده لنفسه أم يسأل جارا؟.. ومعظم ركاب قصصنا مرهقون منهكون، وتؤكد هذه القصة من البداية حتى النهاية على ركابنا الذين «يستجلبون عصارة النوم الذى لم يكتمل يوما، نوم يقاوم بالصحو القسرى، لكنه يتسرب إلى أجسادهم ليأكل الأعصاب ورغبات التفوه بالكلام.. ويغتال الضحك فى الصدور.. نوم مختبئ فى خبايا الرءوس، يخمد التلافيف المكدودة.. طافح فوق السحنة، مطل بالاصفرار والوجوم. ينخر فى الأبدان لتبدو كأشجار جوفاء تصفر فيها الريح..

يتوقون إلى إغماض الأعين، اسناد الأدمغة الثقيلة على الجدران.. المكن المكاتب.. أو الأرصفة مشجوب نهارهم بالحدقات.. يناضلون به النعاس.. ليعودا بما تجود به أيدى الورش.. وكالة الخضر.. المصالح والأسواق..».

وفى قصة: «ظل باب» تشترى امرأة من سوق الجمعة الذى يقام بناحية مينا البصل بابًا قديما مكسور الزجاج رفعته فوق رأسها حتى وصلت إلى محطة القطار، وكان ابنها الصغير يحمل المفصلات، ويصف الكاتب معاناة المرأة إلى أن سمح لها عامل الباب بالدخول، ثم يصر المحصل على أن تدفع المرأة تذكرة طرد مرتفعة القيمة. وعندما جمعها الركاب لها رفع المحصل النقود: «عشان تعرف أن الأمور مش سايبة» وأنزلها فى محطة «سيدى جابر» لتتصرف معها الشرطة ونعلم من السياق أنها تسكن بعزبة بالمندرة بيوتها بلا أبواب. ويفرح ابنها لأن «الهوا مش راح يخش تانى عندنا» ستستريح الأم من عيون الجيران».. وفى هذا الجو المشحون بالترقب والقلق تنطلق النكته، فعندما دق المحصل الباب بالقلم، قال الولد بتلقائية «مين اللى بيخبط».. وكان بالامكان أن تسمى القصة: «ضل باب» فإبدال الظاء إلى ضاد من لهجة قيس وتميم.

إن كل قصة من قصص هذه المجموعة التى تقطر أحزانها فى قلوبنا جديرة بالتأمل والاحتضان.

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٥٤٤١/٢٠٠٤

I.S.B.N.977 - 01 - 9269 - 4